

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول
العدد: ٢٥ / السنة السادسة / (يوليو - أغسطس) ٢٠١١

السائرون

كالفراش هائمون، حول الزهر محوّمون،
سبُلُنا شائكة مَرةً، ومخضرّة أخرى،
بأنفاسنا الربّانية نواصل التحليق،
وفي درب الملائكة في السماء نسير...

***

الوعي الجمعي

الوجهة

الطفولة
والإدمان الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية



العدد: ٢٥
السنة السادسة
(يوليو – أغسطس) ٢٠١١

المفترقات القدرية

يتواكب هذا العدد مع المفترقات القدرية التي تمر بها الأمة في الوقت الراهن، ففي المقال الرئيس المعنون بـ"الوعي الجمعي" ينبه الأستاذ فتح الله كولن إلى أهمية "الوعي الجمعي" المنبني في أصله على التعقل والتمحيص والتثبت والتروي وملاحظة الحاضر والمستقبل معًا في التقدير والتدبير... في وقاية الجماهير المتحمسة المتدفقة كالسيل الهادر من التردي والانتكاس أو الانزلاق إلى هاوية، إن لم تؤخرها فقد تقود بها إلى نقطة البداية من جديد، وتلك مأساة تكرارها ليس بالقليل. ومن ثم فإن هناك نقاطًا ينبغي الالتفات إليها، لاغتنام ذلك المفترق القدري والوصول إلى مأمولنا في تحقيق تقدم وتطور باهرَين... ومن السياق ذاته يؤكد الدكتور أحمد عبادي في مقاله الموسوم بـ"الوجهة" على ضرورة معرفة القبلة التي ينبغي أن يُسجد نحوها ويُقترب منها، وتحديد الوجهة السليمة نحو القبلة بإبصار العلامات الدالة عليها، مع لزوم الحركة الدائبة والسجود الدائم لضمان السلامة والفوز للحركة الإنسانية على مستوى الفرد والجماعة.

وبالصبر في البحث العلمي وإعادة قراءة القرآن الكريم بطريقة خاصة، سعيًا لاكتشاف النظام القرآني الذي غاب عن الأمة سيكون المستقبل لديننا، بالإضافة إلى ضرورات أخرى أسفر عنها مقال الدكتور محمد بن موسى باباعمي الموسوم بـ"النظام القرآني للحضارة". ثم دعْ كلمات الأستاذ أديب الدباغ الجزلة وعباراته الرائقة وأفكاره المتدفقة وأسلوبه المرسل تفعل في نفسك فعلها، وتنطق بقول المصطفى ﷺ: "إن من البيان لسحرًا" في مقاله "على حافات الانكسار الحضاري". ولا تكاد تشفى من الدباغ حتى تنمحي مع "الأمراني" في تلك الواحة الأدبية الفيحاء.

وهكذا تظل كالطائر تنتقل من غصن إلى غصن، أو كالنحلة ترتشف رحيق المقالات في دوحة حراء اليانعة، حتى يستقر بك المقام طويلاً على زهرة مقال الدكتور الشاهد البوشيخي الموسوم بـ"القول البليغ والأدب الأسمى: القرآن الكريم"، لتتنسم عبير البلاغة في أبهى حللها وتقف على الأس الأساس في إنتاج الأدب الإسلامي أو إنتاج الأدب الحقيقي.

كما تستطيع أن تفقه "هدْي النبي ﷺ في التعايش مع الآخر" إذا طالعت مقال الأستاذ الدكتور علي جمعة، وهي قضية تشغل بال الكثيرين في الوقت الراهن، وقد جَلَّى فضيلته الغياية في إطار حديثه عن هذا الموضوع. وتستطيع -كذلك- أن تكتسب خبرة تربوية من ضرر "الإدمان الإلكتروني" على عالم الطفولة، وتسمع تسبيح "الغدد الداخلية" وهي تعبر عن قدرة خالقها بلسان حالها، وتتابع تفاصيل وقائع "المؤتمر الدولي الثاني للقرآن الكريم والحقائق العلمية" الذي نظمته "حراء" في الربيع الماضي.

وبقدر ما تسمح به هذه الصفحة نكون قد ألمحنا وأشرنا إلى بعض المقالات، أما الأخرى فنحن طامعون بكرم تفهّم كتابها وتقديرهم، ومن الله تعالى التوفيق والسداد.







المحتويات



القول البليغ والأدب الأسمى
الوجهة
هدي النبي
في التعايش مع الآخر
على حافات الانكسار الحضاري

فتح الله كولن



الوعي الجمعي

إن أشـد الفتـرات تأزمًا في حيـاة الأمم هي الفترات التي تعيش فيها حالة تغيّر اجتماعي، وتعيد فيها تشـكيل بنائهـا الذاتي من جديد.

وإن حالهـا فـي هذه الظروف تشـبه حال الأحيـاء التي تدخل مرحلـة "التحول البيولوجي"، حيث إنهـا طوال عملية التجدد تتقلب وسـط أوجـاع مخاض مرهقة، وتقاسـي كروبًا مضنية، وتكابد آلاما متتالية لكي تطرح عنها عناصر بالية مضرة، وتطور بـدلاً منهـا عناصر جديـدة نافعة... كذلك في فتـرات التحول الاجتماعـي وبسـبب الأحـداث التـي تثيـر حالـة التوتر لدى الجماهير، لا مناص من الوقوع في براثن الأزمات سواء على مسـتوى الفـرد أم المجتمع. أما إذا تجاهلـت عمليةُ التخطيط والبنـاء "الثوابـتَ" التي أبـرزت جدارتَها مـرارًا عبر اختبارات عديـدة، فسـوف تـزداد الأزمة تعقيـدًا وتـؤدي بالمجتمع إلى أخطاء فادحة.. إذ قد يقع العقل والمنطق -في هذه الأحوال- صريعًـا أمـام العاطفـة.. وقـد تنفلـت الأوضاع فـيؤدي ذلك إلـى الانحـراف عن الخطط المرسـومة، طبعًـا إن كانت هناك خطط مرسومة.. وقد يتلاشى التناغم العام كليًّا نتيجة الحلول المؤقتة الضيقة والمشاريع الصغيرة القاصرة، فيواجه المجتمع نتائـج مرعبة -لـم تكن في الحسـبان- تجري في عكس اتجاه الخطـط المرسـومة والآمال المنشـودة.. وبالتالـي فقد تندفع الجماهيـر وكذلـك القيادات التي توجّههـا -كما نلاحظ ذلك كثيرًا- إلى تصرفات عاطفية طائشـة في المواقف التي تقتضي التعقّـل والتبصّـر والتدبير، ومن ثَمَّ يؤدي ذلـك إلى ألوان من الهدم والتخريب في مرحلة البناء والتكوين.

إن الشـعوب والأمـم كثيرًا ما تجد نفسـها أمـام "ملتقيات قدَريـة" إبـان فترات إعـادة البنـاء ومخاض التحـوّلات. تلك الملتقيـات قـد تحمـل فـي طياتهـا إمكانـات الرقـي والتألق الباهرَين، ولكن قد تنتهي بها -بسبب اندفاع الجماهير وجشع المتمركزيـن فـي القمـم- إلى انهيـار فجائي لكل مـا تم بناؤه حتى تلك اللحظة، والعودة إلى نقطة البداية من جديد، وتلك لعمري مأساة قلّما خلت منها حقبة من الزمان. بيد أن ما يجدر ذكـره هنـا، أن الفرد فـي فترات التغيّـر والتحـوّل تعتريه حال مغايرة للحال التي كان عليها في أيامه الطبيعية. إذ ينسـلخ من الحالة الفردية انسـلاخًا تامًّا، ويتقمّص بقميص "سـيكولوجية الجماهيـر"، ويتحوّل إلى كيان جماهيري، حتى يصير جزءًا لا يتجزأ من الحشود التي تندفع كالسيل الهادر نحو اتجاه واحد تبتغـي الوصول إليه ولا ترضى عنه بديلاً.. وفي سـبيلها تلك تجرف كل ما حولها من عناصر، وتدفع كل ما يعترض سبيلها بغية الوصول إلى هدفها المنشـود. وإن الأفراد الذين تعرضوا لتحوّل ذهني كهذا، لا يستطيعون أن يعملوا بعقلية الفرد المتثبّت

الممحّص البصير، بل يندفعون مأخوذين بـ"سيكولوجية الجماهير" وعقليتها، منقادين لتوجيهاتها، منصاعين لأوامرها.

وإن ذلك النمط السابق من هذه العقلية ومفرزاتِها يختلف تمام الاختلاف عن نمط عقلية "الوعي الجمعي" ويتناقض معه تمام التناقض في مقاصده ومآلاته. إذ إن النمط الأخير ينبني في أصله على التعقّل والتمحيص والتثبّت والتروي، وملاحظةِ الحاضر والمستقبل معًا في التقدير والتدبير، ومعاينةِ الجزء مع الكل جنبًا إلى جنب في آن واحد. ومن ثَمَّ كنا وما زلنا نحض على ذلك النمط من الوعي وننصح به باستمرار. فبينما تطغى على النمط الأول عواطف غير منضبطة وحماس غير متزن وانفعالات غير منتظمة، يتألق في النمط الثاني التعقّل والتبصّر والانضباط والانتظام والحذر والتثبّت. وقد يبدو كلا النمطين من التفكير والسلوك متشابهين للوهلة الأولى من حيث الصورة الحركية والوعود المستقبلية التي تبشر بها، إلا أنه من المستحيل تجنُّبُ وقوع عواقب تتناقض مع جوهر الحركة وأهدافها في النمط الأول، في حين أنه في النمط الثاني لا مكان للتعثّر والانتكاس والفشل بالقدر نفسه على الإطلاق.

إن "الوعي الجمعي" -بالمفهوم السابق- يحمل في أعماقه أسباب وجودنا وأسرار بقائنا أمة، إذ يستقي مادة حياته من منبع ثقافتنا الدينية وهويتنا الذاتية، وبفضله تتناغم مكارم الأخلاق مع الحياة الاجتماعية. إن الأفعال التي تصدر عن الأفراد ذوي "الوعي الجمعي" تنسجم فيها العاطفة الجياشة مع السلوك الواعي المنتظم، والحيوية المتدفقة مع الإقدام المتبصر المتزن. وإذا ما تم تثمين هذه الأفعال في فترات التحوّل فإنك لن تجد ميزانًا يستطيع أن يوفيها قدرها، لأنها قد بلغت قيمة ما بعدها قيمة بالدور العظيم الذي قامت به.. وشتان بين وزنها في مثل هذه الظروف الحرجة ووزنها في الأوقات العادية. أما الأفعال التي تصدر عن الحشود المندفعة بـ"سيكولوجية الجماهير" فإنها لا تخلو من أخطاء كبيرة واضطرابات مدمرة.

إن المبادرات والمشاريع التي تستهدف مقاصد سامية وغايات عالية تسمو بأبنائها من حال إلى حال، وترقى بهم من درجة إلى أخرى، وتظل تشحذهم وتصقلهم حتى تنضجهم وتجعل منهم كيانات متوحدة في مجموعة واحدة، وتُخرج منهم أممًا في أفراد. ولا شك أن أصحاب المشاريع الكبرى إذا نجحوا -أثناء إنجاز مشاريعهم- في أن يقدّموا العقل على العاطفة، والتجربة والملاحظة على السلوك الحماسي، وأن يحيطوا مشاريعهم بأنوار الرسالة الربانية.. إذا نجحوا في ذلك فسوف تدخل الحشود المندفعة بالعاطفة تحت تأثير تلك الحركة الحكيمة المتثبتة المتوازنة، وتنخرط في سلكها، وترقى في تحركها إلى موقع التعقّل والاتزان والانضباط، فتلتقي مع أرباب الاستقامة وأهل الاعتدال على خط واحد.. وهنا بالتحديد سوف يَبرُز "أربابُ المستوى" ممن تفوّقوا على الجماهير تبصّرًا وحكمة وفكرًا ليتفاعلوا معهم ويقاسموهم عواطفهم الجياشة وحماسهم المتدفق، وبالتالي سوف يظهر فضاء مركّب عجيب من حركة العقل والعاطفة. وهكذا فإن الأفراد الذين لا يستطيعون -بحكم مزاجهم البشري- أن يكونوا رجال تعقّل واتزان في كثير من الأحيان.. بعد تسرّب هذا الفهم الحكيم إلى وعيهم وشعورهم وتشربهم له، وبعد تقلّبهم في بوتقة "الوعي الجمعي" وانصهارهم فيها، وبعد قبولهم هذه الخميرة الحيوية واستيعابهم لها، ودخولهم في مراحل تحوّلية جوهرية وتَشكُّلِهم فيها.. فإن هؤلاء الأفراد سوف يتسامون إلى مرتقى عال وفضاء واسع يصبحون فيه أبناء مثاليين لمجتمع مثالي. وإن جميع التحوّلات التي تحصل في هذه الوتيرة الكريمة، قد لا نجد لها تفسيرًا معقولاً للوهلة الأولى، وقد تبدو لنا وكأنها تحدث في عالم من الخوارق بدفع من قوى غامضة خفية؛ بينما يمكن إرجاعها جميعًا إلى مرجعية أساسية حيوية، ألا وهي هويتنا الذاتية وشخصيتنا الثقافية المعنوية التي نهلت من روح الدين وتغذّت بجوهره وتشبّعت بحقائقه الخالدة. وإنه لمن الحقائق الكبرى التي لا تقبل الشك والمراء، أن أبناء أمتنا النجباء، بفضل هويتنا الذاتية هذه، قد اجتمع شملهم والتأم شتاتهم حول فكرة واحدة وعاطفة واحدة مرات عديدة طوال التاريخ؛ فانتظمت صفوفهم على غايات متبادلة وأحلام مشتركة، وخفقت قلوبهم بنفس المشاعر والآمال، ودافعوا جنبًا إلى جنب عن القيم السامية ذاتها، وكافحوا صفًّا واحدًا من أجل المبادئ العالية نفسها، واستبقوا فيما بينهم دون توقف أو فتور لتحقيق الرؤى المنشودة عينها والمقاصد السامية نفسها.

صحيح أن هناك عوامل ودوافع أخرى لها سلطان على الأفراد والجماعات ولها تأثير على سلوكهم، ولكن عندما تتصل الأمة بجذورها الروحية وتُحكِم صلتها بأصولها الوجدانية، فلسوف يتلاشى تأثير تلك العوامل، ويبهت دورها، ويضعف وزنها. وإذا كانت وشائج الارتباط بين أبناء الأمة ومقوماتها التاريخية -المادية منها والمعنوية- وثيقة متينة

مستمرة، فسوف يحلّق هؤلاء الأبناء الأوفياء نحو فضاءات الماضي الزاهر، وتتفاعل مشاعرهم القلبية بمشاعر أجدادهم النبلاء، ويندمجون معهم في جيشانهم الروحي وتألقهم الوجداني -بدفع قويّ من الوعي بالتاريخ- فتلتقي التصورات وتتوحد الآمال.. فيحققون بطولات تضاهي بطولات أولئك الأجداد، ويبدعون في تطوير أنظمة فكرية، ورؤى عالمية، ومبادئ ومشاريع جديدة تحمل قدرة التأثير على المجتمعات البشرية في كافة بقاع الأرض. ويمكننا أن نذكر لذلك نماذج بطولية عديدة في باب تاريخنا التدافعي التحاسبي مع القوى العالمية الكبرى مثل ملحمة "مؤتة" ورائعة "القادسية" ومعركة "مالاذْكُرْد" وأسطورة "جَنَقْ قلعة"... كما يمكننا أن نذكر عواصم عديدة في باب التذكير بموقعنا المرموق في الموازنات الدولية من خلال الخط التاريخي الذهبي الممتد من المدينة المنورة إلى الشام، ومن الشام إلى بغداد، ومنها إلى إسطنبول. ونكتفي بهذا القدر هنا، اعتمادًا على فراسة القارئ وغزارة مادته المتعلقة بهذا الشأن في خزانة تداعياته التاريخية.

لقد دخلنا في هذه الأيام مع الأمم والشعوب المرتبطة بنا في سلسلة من التحوّلات والتغيّرات. وإذ نسير نحو مستقبل حافل بتحوّلات متلاحقة وتقلّبات متتالية، فإنه من الأهمية بمكان الحفاظُ على روح الأمة وهويتها الذاتية، وإقرارُ الفرد والجماهير على محور التعقّل والتبصّر والاتزان في التفكير والتخطيط والتدبير، وعدم إتاحة الفرصة لأيّ نوع من أنواع التفكير الفوضوي والسلوك الاستفزازي الذي من شأنه أن يثير الحشود الجماهيرية إلى تصرفات عشوائية مجهولة العاقبة.. وفي حال وجود بؤر استفزازية ينبغي التصدّي لها فورًا.. وإنّ اتباع هذه الخطوات واتخاذ تلك التدابير مهم جدًّا بقدْر أهمية الإرشاد إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله، بل قد يكون أهم منهما وأخطر في الظرف الراهن بالذات. ولا يَغيبنّ عن البال أبدًا أنه من السهولة بمكان، أن تتحوّل الجماهير الحاشدة من الألفة إلى البغض، ومن الوحدة إلى التفرّق، ومن التحرّك المشترك إلى الفوضى والتمزّق. لذا ينبغي ألا تتاح الفرصة لأفراد الحشود العشوائية في أن يجرفوا أنفسهم والأمة التي ينتمون إليها، نحو عواقب مأساوية بسبب معالجات متعجلة متسرعة، أو تحت تأثير بعض النفوس المولعة بالمغامرات. أجل، ينبغي التصدي لتلك النفوس المغامرة حتى لا تعبث بمقدرات الأمة؛ وبالمقابل يتطلب الموقف توجيهَ الأنظار باستمرار إلى الأبطال المخلصين الذين يمثلون روح الكتاب المجيد وجوهر السنة النبوية الشريفة. وإنك لتلمح في سلوك هؤلاء الأبطال الذين يُعتبَرون ركنًا نورانيًّا أساسيًّا من أركان "الوعي الجمعي" الذي يدور في مدار الوحي الإلهي.. إنك لتلمح التواضع والانمحاء ونكران الذات بدل السعي وراء الشهرة والمناصب، والإيثارَ بدل الاستئثار، والحرصَ على مصالح المجتمع بدلاً من المصلحة الذاتية.

إن هؤلاء الأبطال يحملون في جوانحهم هموم المجتمع كله.. هموم يومه وغده.. وهم يشعرون في أعماقهم بمسؤولية تاريخية تجاه حاضر الأمة ومستقبلها. وبالتالي فبينما تجدهم يزأرون بأفكارهم بشجاعة منقطعة النظير حينًا، تلقاهم في حين آخر وقد اعتراهم الهمّ المقلق، وأصابهم الأرق المضني، وذهبت بهم التوجسات مذاهب شتى حرصًا على حياة البراعم الناشئة من الضياع. فمَثَلُهم في ذلك مثل الدجاجة الحضون التي تبسط أجنحتها على بيضاتها، وتشمل أفراخها بالمحبة، وتموت وتحيا من أجلها في اليوم مائة مرة. ومن ثَمَّ فإنهم إذ يتعرّضون إلى أشنع أنواع التشويه والتحقير والإهانات لا يردّون عليها ولو بكلمة، بل يتحمّلونها على مرارتها معتصمين بالصبر الجميل؛ وإذ تتفجر براكين العواطف وتثور نيران الانفعالات في أعماقهم لا يأبهون لها، بل يكظمونها ويحبسونها في صدورهم، ثم يمضون في سبيلهم كأن لم يحصل شيء قط. إن هذه النفوس المتدفقة بمشاعر سامية، لن تُحجم أبدًا عن أن تُقبِل على الموت بابتسام، أو أن تضحّي بأرواحها من أجل الآخرين ببسالة مذهلة، أو أن تزجّ بنفسها وسط النيران كإطفائي شجاع بكل سعادة لإنقاذ من يستغيث بها. وهي إذ تقوم بهذه البطولات الفريدة يتوهج ألق الشعور بالمسؤولية على ملامحها، وتتجلى لذة العبودية وخشوعها على تصرفاتها. إنهم لا ينتظرون جزاءً ولا شكورًا مقابل تضحياتهم النبيلة، بل لو استنجدهم أحد فلم يسرعوا إلى نجدته في الحال عدُّوا ذلك جريمة لا تغتفر، واعتبروا أنفسهم غير أوفياء، وبادروا إلى محاسبة أنفسهم وتعنيفها.

قلوب هؤلاء المخلصين تخفق بالأمل في كل وقت.. وإنك لن تجدهم مقصّرين أبدًا في استثمار الطاقات والإمكانات المادية والروحية التي تدعم مشاريعهم وتحقق خططهم التي رسموها وفقًا لخريطة آمالهم، واعتبروا إنجازها أسمى أمانيهم. وهم في كل ذلك لا يبتغون سوى مرضاة الله تعالى والتحقق بمعاني الإخلاص المحض؛ حتى إذا ما مُنِحوا -دون سؤال منهم- مكافأةً مادية أو تنزّلت عليهم مواهبُ روحية وموارد

وجدانية لقاء خدماتهم أو مكابداتهم، فسوف يترددون بين هواجس الخوف من أن يكون ذلك استدراجًا من الله وابتلاء، وبين فرحة نوال النعمة العظمى والإعلان عنها؛ فتجد عباراتهم تتـرواح بيـن مشـاعر الخوف والرجـاء.. فهي وجِلة مرتعشـة متعثرة عند شعورهم بالخوف.. مشرقة مبتهجة ممتلئة ثقةً بالله ﷻ عنـد إحساسـهم بالرجاء. وهـم بين هذه المشـاعر وتلك يواصلـون حياتهـم أبطالاً للمراقبـة ورموزًا للتبصّـر واليقظة.

وينبغـي التأكيـد علـى أن هـؤلاء المتيّميـن ليسـوا رجالاً مستسـلمين متواكليـن سـلبيّين أبـدًا. فبالإضافة إلـى توكلهم الكامل على الله ﷻ، وتسـليمهم الخالص له، وتفويضهم التام إليه، فهم منتبهون إلى ما يجري حولهم من وقائع أشد ما يكون الانتبـاه، حساسـون تجاه ما يحدث في السـاحة من تحوّلات وتقلّبات أشد ما تكون الحساسية؛ بل ويتخذون إزاءها مواقف واضحة وحاسمة، ويتفاعلون معها تفاعلاً حكيمًا وبصيرًا. فهم لا يتعثـرون بعواطفهـم أبدًا، لا في شـؤونهم الدنيوية ولا في شؤونهم الأخروية.. ويزِنون كل حركاتهم وسكناتهم بموازين الأوامر الإلهية.. ويراعون مستوى الفهم البشري في مقولاتهم وخطاباتهـم وتفسـيراتهم، ومـن ثَـمَّ تأتـي قراءتهـم ورؤيتهم لحقيقة الكون منسـجمة مع الفهم البشـري. هـؤلاء الحكماء يدركـون موقـع الإنسـان من الكـون حـقّ الإدراك، ويعرفون مكانتـه حـقّ المعرفة.. وكذلـك يبتعدون عـن كل فعل يؤدي إلى الاصطدام مع فطرة الأشـياء وطبيعة الأحداث، ويسـعون دائمًـا إلـى أن يكونـوا متوافقين متآلفيـن مع السـنن الكونية.

هذا، ولكي نسـير بخطوات واثقة إلى المسـتقبل المشرق الـذي نؤمّـل أن يكـون لنا، ننبـه فيما يلي إلى قضايـا في غاية الأهمية والحيوية؛

• ينبغـي علـى الأمـة جميعًـا وبالأخـص علـى النخـب والمثقفين منها، أن يؤسّسوا "سَلامًا" بينهم وبين تاريخهم.

• إن كل حركـة تجديديـة وعملية تغييريـة تم وضعها من أجل إنشـاء المسـتقبل، ينبغـي أن يتم التخطيط لهـا بناءً على مقوماتنا التاريخية وجذورنا الروحية.

• إن قضية حيوية كهذه القضية ينبغي ألا تشوَّه بالأغراض السياسية ولا أن تلوَّث بالمطامع الفردية أو المصالح الفئوية.

• يجـب أن يوضـع في الحسـبان أن المسـاعي والجهود التـي تصبّ فـي هذا الاتجاه قد تعترضهـا بعض المضاعفات الجانبية المفاجئة حتى وإن تم اتخاذ كل التدابير اللازمة. ومن ثَمَّ ينبغي السير بحكمة وبصيرة؛ كما ينبغي عدم إتاحة الفرصة لعواطف طفولية طائشة قد تبدر من بعض الشباب العابث، أو لتصرفات غير مسؤولة قد تصدر عن بعض عشاق المغامرات؛ بـل حتـى لو أُهِينـت كرامتُنا، فسـوف نكبح جمـاح عواطفنا، ونُحكم السـيطرة علـى أَزِمّـة انفعالاتنا، ونصُرّ على أسـناننا، ونحتمـي بالصبـر، إكرامًـا لغايتنا السـامية وآمالنا المنشـودة.

• قبل أن نهدم بنيانًا ما، ينبغي أن نكون قد حسـمنا قرارنا حـول ما سـيُبنَى مكانه. فإذا كان ذلك واضحًـا وضوحًا تامًّا، عندئذ يمكن الشـروع في هدم البنيـان القديم المتداعي. وإنّ مبدأنـا فـي هـذا الشـأن هو "نَهـدم لِنَبْنـي"، ومن ثَـمَّ فقبل أن نضـرب أول معـول على المبنـى الذي نريد هدمـه، ينبغي أن يكون "نموذج البنيان الجديد" جاهزًا حاضرًا أمام أعيننا.

• إن جميع القرارات وكافة الأفعال المتعلقة بأي مشـروع فـي هـذا الإطـار، ينبغي أن تُـزوَّد بالعلـم والخبـرة والمعرفة والتخطيـط؛ وكل مسـعى وكل مبـادرة ينبغـي أن تدعـم بالدراسـات العميقة والبحوث الدقيقة والاسـتيعاب الشـامل حتى لا نقع في دائرة مفرغة من الهدم والبناء.

لا شك أننا نقف اليوم في مفترق طرق وعلى "ملتقى قدَري" مرة أخرى. ففي ظل الموقف الحرج الذي نعيشه والموقع الدقيق الذي نوجد فيه، إذا اسـتطعنا أن نسـتثمر المرحلة الزمنية التي نمر منها بأفكار عظيمة ومشاريع عملاقة ورؤى بعيدة المدى وعزيمـة كعزيمـة الأنبياء، فإن فرصتنا فـي رجحان كفة ميزان "الملتقى القدَري" لصالحنا أسـنح بكثير -بالمقارنة مع الأمم الأخرى في العالم- لكي يبزغ نجم سـعدنا متألقًا في الآفاق.

إننـا نعانـي اليوم من مـآس حقيقيـة، وهشاشـة اجتماعية واقتصاديـة، ناهيـك عـن الفوضى التي لا تسـأم بؤرُ الفسـاد الداخليةُ والخارجية من إثارتها واستفزازها. لكنني على يقين تـام بأننـا قادرون علـى تجاوزهـا. إذ إن سـنة الله اقتضت ألا تسـتمر وتيرة السـقوط والتراجع إلى الأبد.. وألا تسير عجلة الأحـداث والوقائع فـي اتجاه واحد قط.. وألا يمتد سـلطان الليالي إلى أبد الآباد. فكم من مَرة دار الزمان دورته، فتألقت خرائب الديار بلآلئ العمران من جديد، وعادت يد الأحداث -التـي تسـير في خـط دائـري- توزع أزهـار البسـمات على البؤسـاء الذيـن أبكتهم فيمـا مضى، وانهزمـت ظلمات الليل أمـام ضيـاء النهار مدحـورة مقهـورة، ودوّت جنبـاتُ الكون مهللة بضحكات النور الساطعة. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

أ.د. أحمد عبادي*

الوجهة

ع

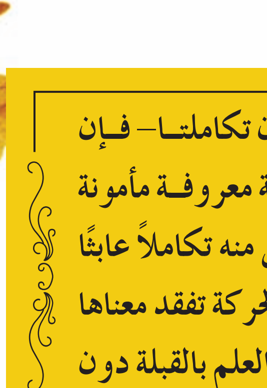
على قدر إتقان التساؤل وإتقان استخلاص الإجابات عنه تكون فاعلية الإنسان في الكون المحيط به، وهو تساؤل ينبغي أن يكون -كما إجاباته- باللغة التي يفهمها الكون. فالأبجد الذي به يتم البيان والتبيّن بين أفراد الإنسان، لا يغني في البيان والتبين مع، ومن الكون.

إن علوم التسخير جميعها لم تغْدُ كونها باحثة عن هذا الأبجد الذي به يؤمر الكون المسخر فيستجيب وفق السنن التي أودعها الله فيه، وهي سنن تجعله رافضًا كليةً للعبث، إذ لا يفهمه.

وواضح من خلال النظر العام في تاريخ الإنسان، أن التساؤل يتشعب على احتمالات لا انتهاء لها: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾(الليل:٤)، احتمالات يكون المحدد لها هو رغبات الإنسان وميوله وطموحاته وآماله. إن هذه الدوافع الكامنة هي التي تستدعي تساؤلات تتسق معها.

إن تساؤل الإنسان إذن -في هذا الكون ومعه- هو حركته، وهي حركة تُشكّل الدوافعُ والنزاعات الكامنةُ المولّدَ لوجهتها.

يمكن إذن، تشبيه حركة الإنسان في الكون بحوار -إذ كلما حصل على جواب من الكون حوّله إلى سؤال آخر أكبر، كدحًا إلى الملاقاة- فإن كان الحوار مثمرًا -والإثمار مسؤولية يتحملها الإنسان لأنه هو المسخِّر والكون هو المسخَّر- أصبحت حياة الإنسان في الكون ممكنة، وإلا فإنها تنعدم. وتاريخ الإنسان يحفل بحالات عسر الحياة أو انتهائها التي نجمت عن عجز الإنسان عن إجراء الحوار المثمر مع الكون، فالأرض قد قدر رب العزة فيها أقواتها: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾(فصلت:١٠)، غير أن ثمة -أيضًا- تجارب مُرة تبين أن الحياة تستمر، ولكن بتردٍّ مستمر عبر دركات ومهاوي الذلة والحيرة والتبعية، وما ذاك إلا بسبب تداعي



الحركـة والوجهـة –وإن تكاملتـا– فـإن تكاملهمـا إلى غـير قبلـة معروفـة مأمونة العواقب، سـوف يجعل منه تكاملاً عابثًا سرعان ما يغيض، إذ الحركة تفقد معناها بفقدانها القبلة، كما أن العلم بالقبلة دون حركة موجهة نحوها لا يجدي.

الرغبات غير المنتظمة في نسق مشروع بيّن العواقب يجعلها (أي الرغبات) تولد طاقة دافعة لتحقيقه.

الوجهة في المجال الإنساني

إن المشـروع في الاجتماع البشري أشبه بالنواة في الذرة التي تنتظم حركة الكهارب فتجعلها حركة غائية هادفة، فحين تزول النـواة ينفـرط نظام الذرة وتسـتحيل الكهارب إلى جسـيمات تتحـرك، ولكن حركة دون وجهة سـرعان ما تنهيها. لكن بعد الوعـي بأهميـة المشـروع تنشـأ ضـرورةُ أن يكون المشـروع صـادرًا عـن فهم للإنسـان فلا يضخم جانبًا فيه على حسـاب جوانـب أخرى، إذ المشـاريع التي تنشـأ عن عـدم فهم كافٍ للإنسـان تتشـكل حولها عصبية دافعة، ولكن نحو بوار، فهي وإن بدت في مبدئها قوية فاعلة مثمرة، فإنها ما تلبث أن تنهك ببذور الفناء التي تحملها في أطوائها.

وهـذا مـا تفطَّن له ابـن خلدون رحمه الله فـي مقدمته في سـياق بحثه اللوذعي للعصبية إذ قال: "الإنسـان خلالُ الخير فيه هي التي تناسـب السياسة والمُلك، إذ الخير هو المناسب للسياسـة، وقد ذكرنا أن المجد له أصل يبنى عليه وتتحقق به حقيقته، وهو العصبية والعشـيرة، وفـرع يُتمم وجوده ويكمله وهو الخلال. وإذا كان المُلك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها ومتمماتهـا وهي الخـلال، لأن وجـوده دون متمماته كوجودِ شـخص مقطـوع الأعضـاء. وإذا تـأذن الله بانقـراض الملـك مـن أمـة حملهم على ارتـكاب المذمومات وانتحـال الرذائل وسـلوك طرقهـا، فتفقد الفضائل السياسـية منهـم جملة، ولا تـزال في انتقاص إلى أن يخرج الملـك من أيديهم ويتبدل به سـواهم: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَـقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(الإسراء:١٦)، واستقرئ ذلك وتتبعْه في الأمم السـابقة تجدْ كثيرًا مما قلناه ورسـمناه، والله يخلق ما يشاء.

إن الوجهـة فـي المجال الإنسـاني، منفصلة عـن الحركة انفصالاً ليس بانفصالِ اسـتقلالٍ، وإنما هو انفصال تحد جعل كل منهما يتكامل مع الآخر.

لننظـر –مثلاً– إلى سـائق سـيارة يضمـن حركتها محركها وهـي حركة سـريعة فاعلـة، لكـن إذا اقترنت بهـا وجهة غير مستبصرة قد تجعـل منها حركـة قاتلة رغـم فاعليتها. ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد في المجال الإنساني، فالحركة والوجهـة –وإن تكاملتـا– فإن تكاملهما إلـى غير قبلة معروفة مأمونـة العواقـب سـوف يجعل منـه تكاملا عابثًا سـرعان ما يغيـض، إذ الحركة تفقد معناهـا بفقدانها القبلة، كما أن العلم بالقبلـة دون حركـة موجهة نحوها لا يجدي ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَـاتِ رَبِّـكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًـا إِيمَانُهَا لَـمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِـنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾(الأنعام:١٥٨).

إن تنـوع وتعـدد أسـباب العيش وأماكنـه والحوائل دونه، وكـذا تعدد طموحات الإنسـان وآمالـه التي يريـد أن يبلُغها،

وتعـدد وتنـوع آلامه التي يريد الفرار منهـا، يفرض عليه تقلبًا دائمًـا فـي المواقع، وهي مواقع ليس يسـهل عليـه منها جعل حركته معانقة لقبلته، فيصبح التوجه ضرورة في حياة الإنسان لكونه شرط هذه المعانقة.

تحديد الوجهة السليمة باستتباع حركة السجود

فللسـلامة والفـوز لابـد مـن المعرفـة بالقبلـة التـي ينبغـي أن يسـجد نحوهـا ويقتـرب منهـا: ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْـهُ وَاسْـجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩)، ولابد من إبصـار العلامات/البصائر التي تُحـدد الوجهة السـليمة نحـو القبلة انطلاقًا منـه: ﴿وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(النحل:١٦)، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(الأنعام:١٠٤)، كما أنه لابد من الحركة وفعل السجود، إذ لا معنى لمعرفة القبلة وتحديد الوجهة إن لم يكن هذا يَستتبع حركةً وسجودًا نحوها.

فـإذا نحـن نقلنـا النظـر مـن الإنسـان فـردًا إلى الإنسـان جماعة حيث يكون السـعي شـتى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ۞ إِنَّ سَـعْيَكُمْ لَشَـتَّى﴾(الليل:٣-٤)، وحيث بالتبع تتعدد المواقع بتعـدد النـاس، وما يسـتبطنه كل واحد منهم مـن دوافع، فإن التحـدي يصبح أكبر، ومفاده هـو: كيف يحصل الانتظام نحو القبلة الواحدة عبر هندسـة لمختلـف الوجهات تجعل حركة متوجهيهـا متكاملة متضافرة غير متضاربـة ولا متنافية؟ بعبارة أخـرى؛ كيـف تصبح هـذه الجماعـة المقبلة في ظـل الوحي المُعلِـم بالقبلة، قادرة علـى إبصار الآيات والبصائر المحكَمة المفصَّلة المصرَّفة التي تعين على تحديد الوجهات المتكاملة، لكل من موقعه، فتصير الجماعة أمة تؤم قبلة واحدة.

إنه لا مناص -لكي توجَد الأمة- من إمام يهدي إلى القبلة بسيره الراشد، كما يهدي إلى منهج تبيّن الوجهة نحوها، بتلاوة الآيات والبصائر، وبتزكية أفراد الأمة كيما يشكلوا باجتماعهم جماعـة مقبلـة على ربها، كما يهدي بتعليـم الحكمة الممكّنة من تأويل الآيات والبصائر والعمل بمقتضاها.

يقول تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَـةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَـرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّـهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّـا يَعْمَلُونَ ۞ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِيـنَ أُوتُـوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَـةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَـا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُـمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۞ وَلِـكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْـرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْـتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّـهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّـكَ وَمَـا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُـونَ ۞ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَـطْرَهُ لِئَـلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّـةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ كَمَا أَرْسَـلْنَا فِيكُمْ رَسُـولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۞ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾(البقرة:١٤٤-١٥٢).

إن خلـق الكائنـات -مـا خـلا الإنسـان- مُعَرَّفـة الحركة والوجهـة، أي دوام سـجودها وحتميتـه -كمـا تقـدم- يجعل مـن الحركـة والوجهـة فـي المجال الكوني شـيئًا واحـدًا. إذ الكائنـات -ما خلا الإنسـان- تتمكن من الحركـة نحو قبلتها ابتـداء، إذ هي كما أعطيت الخلق أعطيت الهداية: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، ﴿رَبُّنَـا الَّـذِي أَعْطَـى كُلَّ شَـيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣).

فالحركـة والوحـي في المجـال الكوني -بنـاء على هذا- مندمجـان بخـلاف حالهما فـي المجال الإنسـاني حيث هما منفصلان. فالإنسـان لا يتمكن من السـجود إلا بقدر تخلصه مـن مختلف السـجون المحتوشـة[1] له، واضطلاعـه بالأمانة التـي حملهـا دون الكائنـات كلها: ﴿إِنَّـا عَرَضْنَـا الأَمَانَةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢).

فالذي يمكن من الفعالية في الحركة هو فقه علوم الكون، والـذي يمكن من الرشـد فـي الوجهة هو فقه علـوم الوحي. وفي الآن ذاته، فلا الكون ولا الوحي يجعلان السجود حتميًّا في المجال الإنساني بل يجعلانه ممكنًا، وعلى الإنسان اتخاذ القرار بتحقيق ذلك في حياته فردًا وأمة... فالعطاء غير مجذوذ ولا محظور، وفرصة الإنسان حياته؛ فإما اهتداء وإما ضلالا.

الغرب واستتباب الوجهة المادية

إن الحتمية التي أدخلها الغرب إلى مجال العلوم الإنسانية، تعتبر من أعظم الإصابات التي أصابت الإنسان المعاصر في قدرته

على التعامل مع ذاته فردًا وجماعة. وقد نتج ذلك عن عدم التفريق بين الإنسان والكون تحت أزّ النزعات المادية التي ذرّت بقرنها منذ أواخر القرن الرابع عشر ردّ فعل على الرهبنة -الناجمة عن المسيحية في أدوارها المتأخرة- والتي أزّمت المجتمعات الغربية والعالم معها. فكان من نتائج ذلك المباشرة استتباب الوجهة المادية، من جهة عن طريق التأصيل الفلسفي والنظري لها، والذي بلغ أوجه مع "هيجل" و"نيتشه" الذي أعلن موت الإله، غير أنه في حقيقة الأمر أعلن موت الإنسان.

ومن جهة ثانية عن طريق الكسب العيني المشخص، والذي بمقتضاه تم إنهاك البعد الروحي للإنسان في مقابل تقوية البعد المادي منه تحت وطأة الانبهار بما حققته العلوم الطبيعية في تعاملها مع الكون، إلى درجة مكننة التصور للإنسان فردًا وجماعة مماهاة له مع الكون.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في بحثه القيم "نموذج تفسيري وتصنيفي جديد": "وفي إطار المرجعية المادية الكامنة، فإن الإنسان كائن طبيعي وليس مقولة مستقلة داخل النظام الطبيعي، وإنما هو مستوعَب تمامًا فيه، ويسقط تمامًا في قبضة السيرورة، فتسقط المرجعية الإنسانية وتصبح الطبيعة/المادة هي المرجعية الوحيدة النهائية، وتُصَفّى ثنائية الإنسان والطبيعة ويمكن حينئذ تفسير الإنسان كما تُفسّر الأشياء.

وثمة قانون واحد يسري على كل الظواهر، وثمة مبدأ مادي واحد تُرَدّ له الظواهر، ومن ثَمَّ يمكن تسوية الإنسان بالكائنات الأخرى، ويمكن تفكيكه في إطار الواحدية الكونية المادية، فيرد الإنسان إلى ما هو دونه، ويصبح شيئًا بين الأشياء، ذرة مثل كل الذرات...

وبهذا المعنى، فإن المرجعية الكونية المادية تشكل هجومًا على الإنسان ككيان حر مستقل، عن الطبيعة/المادة وعلى مركزيته في الكون، بل وعلى مفهوم الطبيعة البشرية ذاتها كمقولة مستقلة عن الطبيعة المادية".

الإنسان ثنائي البُعد والأحادية تنهيه

والحاصل أن الإنسان ثنائي البعد، فالأحادية تنهيه ولا تستتب النظم المتولدة عنها إلا "بموته"، فالفلسفة المادية كالأخرى الروحانية عاجزتان عن فهم الإنسان وعن تمكينه من الخروج من الأزمات التي تزجانه فيها، ولا يمكنهما التحقق في مستوى التنزيل إلا بالقضاء على خصوصية الإنسان المتمثلة في ثنائية بعده. ولذا اعتمدت الأنظمة القائمة على المادية وتعتمد على صياغة "إنسانها" إنسانًا أحادي البعد حتى تقدر نظمها على التحكم فيه والتنبؤ بحركته.

أما وجهة الرهبنة فلا تتحقق بدورها حتى تزج بإنسانها في منحدر البحث عما يسميه فلاسفتها بـ"الموت الاقتداري".

> **فقدر الكون أن يكون ساجدًا لله بشكل دائم، آخذًا لموقعه منذ لحظة خلقه. بينما قدر الإنسان أن يكدح ويكابد لتبوء موقعه ويقوم بتعريف نفسه، قدره أن يعمل لتحقيق السجود ويقتحم كل العقبات المانعة له من ذلك.**

إن محاولة جعل حركة الإنسان كحركة الكون من لدن النزعة المادية الأحادية أو محاولة جعل حركته نابذة للكون من لدن النزعة الروحانية الأحادية (الرهبنة) تفقد الإنسان توازنه، وفي الحين الذي تكون غاية حركة الكون الأحادية هي التوازن، لأن الوجهة مدمجة مع الحركة، فإنها في المجال الإنساني تصبح هي الطغيان (فقدان التوازن)، لأن الوجهة منفصلة عن الحركة، ولأن حديدها مسؤولية الإنسان وأمانته.

يقول تعالى في سورة الشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۞ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۞ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾(الشمس:١-١٥). فكل الكائنات جاءت معرّفة لأنها تخلق ووحيها معها، فسجودها متحقق ابتداءً طوعًا وتقديرًا.

وحين يصل السياق إلى الإنسان ترد نفسه نكرة، إذ الإنسان هو المكلف بتعريفها بحسب علاقته مع الوحي وتحديده وجهته: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، لكي تصير إما ﴿النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾(الفجر:٢٧) أو ﴿النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة:٢) أو ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(يوسف:٥٣).

إن الإنسان ليس هو الكون، وفي الوقت نفسه ليس عدوًّا له، خلافًا للوجهتين النقيضتين: المادية والرهبنة.

فقدَر الكون أن يكون ساجدًا لله بشكل دائم، آخذًا لموقعه منذ لحظة خلقه. بينما قدَر الإنسان أن يكدح ويكابد ليتبوأ موقعه ويقوم بتعريف نفسه، قدره أن يعمل لتحقيق السجود ويقتحم كل العقبات المانعة له من ذلك: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۞ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۞ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾(البلد:١٠-٢٠).

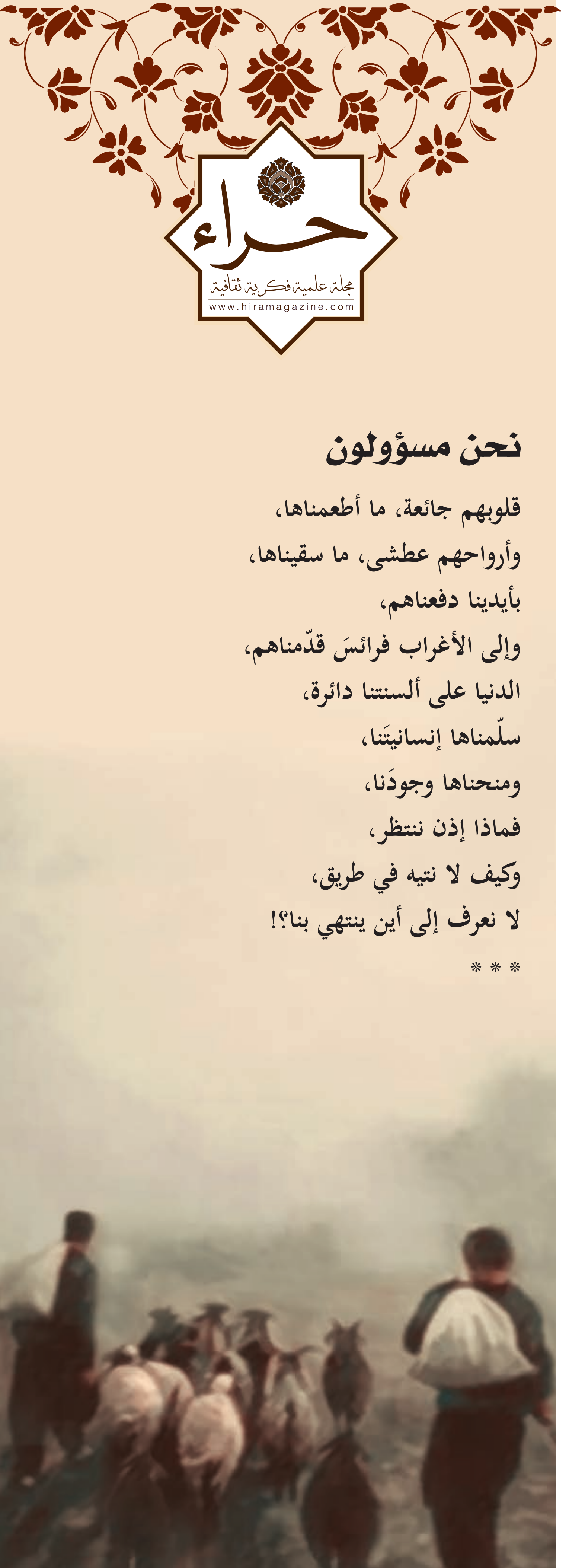
إن قدر الكون أن يكون ثابت الموقع، في حين أن قدر الإنسان أن يحيي قلق وحيرة السعي لتعريف نفسه، ولا سبيل للفلاح في هذا إلا بالوحي.

لقد جاء الوحي في المجال الإنساني متسقًا مع كون الإنسان متحملاً للأمانة، وكونه عُلِّم الأسماءَ كلها، ومع كونه قد أسجدت له الملائكة، ومع كونه قد رفع إلى أعلى مصاف الكرامة. وهذا مقتضاه تفعيل الإمكان الكامن في الإنسان وعدم طمره أو إهماله، لأن في ذاك تحجيمًا له. فالوحي -بناء على هذا- تنزل وفق قدرات الإنسان التي زوّده بها باريه -وهو أعلم به- ولا يحصل الانتفاع به إلا إذا شغلت جميعها. بتعبير آخر، لا يتحقق السجود في المجال الإنساني إلا بحشد الإنسان -فردًا وجماعة- لكل الطاقات المكنونة فيه. وعلى هذا يفهم قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾(التغابن:١٦)، وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠)، وقوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾(الطلاق:٧)، وقوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)، فالوسع والإيتاء قد فُهما في فترات الجمود والقعود فهمًا سالبًا، في حين أن التطلع لتحقيق السجود يقتضي لهما فهمًا موجبًا. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش:

(١) يتخلص من سجن نفسه (أهوائه، غرائزه، نزعاته..) بالمجاهدة والتزكية، ومن سجن محيطه بالتوكل، ومن سجن العقائد والمفاهيم الباطلة بالإخلاص، من سجن الأشياء بالتوق إلى الآخرة المنتج للزهد، ومن سجن الطاغوت بالجهاد الكبير بالقرآن وما يوجه القرآن إلى الجهاد به.



نحن مسؤولون

قلوبهم جائعة، ما أطعمناها،
وأرواحهم عطشى، ما سقيناها،
بأيدينا دفعناهم،
وإلى الأغراب فرائسَ قدّمناهم،
الدنيا على ألسنتنا دائرة،
سلّمناها إنسانيتَنا،
ومنحناها وجودَنا،
فماذا إذن ننتظر،
وكيف لا نتيه في طريق،
لا نعرف إلى أين ينتهي بنا؟!

* * *

أ.د. محمد بن موسى باباعمي*

النظام القرآني للحضارة

نظام لمّا يُكتشف بعدُ



ظلَّ العالِم الفلكيُّ "يوهانز كبلر" خمسًا وعشرين عامًا يبحث عن العلاقة بين فترات دوران الكواكب وبين أبعادها عن الشمس، وقد قضى نفس المدة تقريبًا في إتمام "الجداول الرودلفية" التي شرع فيها قبله العالِم "تايكو براهي"، والتي مكَّنته -بعد إنهائها- من وصف ألف سنة من حركة الكواكب قبل هذا الاكتشاف، ومن توقع ألف سنة مستقبلية من الظواهر الطبيعية بدقة عالية تجاوزت ما أنجِز قبله من جداول فلكية بعشرات المرات.

أردتُ من خلال هذه المقالة التي كتبتُها غداة مطالعتي لكتاب من تأليف "جيمس فويلكل" بعنوان "يوهانز كبلر: وعلم الفلك الجديد"، وبعد دقائق من الانتهاء من مطالعة "شروط النهضة" لمالك بن نبي، في إطار إعداد ما أسميه "أطلس الأفكار"... أردتُ أن أشير إلى ملامح منهجية حضارية، لها دلالتها في "عالَم الأفكار"، ولم أشأ أن أبين مدى الجهود التي بذلها "كبلر" في تطوير علم الفلك، إذ ليس ذلك من اختصاصي ولا يندرج ضمن اهتماماتي.

• أما الملمح الأول فهو "الصبر على البحث العلمي"؛ فخمس وعشرون سنة يشغرها رجل في "الرصد الفلكي" وفي "متابعة الجداول وتدقيق الحسابات" ليست بالأمر الهين، وإني لأسأل اليوم: هل من علماء مسلمين صبورين في مراقبة حال الأمة وحركيتها، ومدى قربها وبعدها من منهج القرآن الكريم، ومن الفكر الإسلامي النير؟

وهل من علماء مسلمين يقيسون بحكمة وشمولية وضع الأمة الإسلامية، بعيدًا عن الطرح "التجزيئي-الذَّري الاختزالي"، فيصفون لنا سبيل النجاة، ويبلغوننا برَّ الأمان بعلمية وفعالية، لا نظريًّا بالاقتصار على الطرح النصي الجاف فقط؟

• أما الملمح الثاني فهو أنَّ القرآن الكريم يستلزم منا -على الأقل- نفس الجهد الذي بذله الغرب -ومن قبله المسلمون في قمة تألقهم- لاستكشاف الكون عبر القرون، سواء في مستوى عدد العلماء، أو عدد ساعات البحث، أو جودة المناهج وتكامل النظريات، أو شبكة العلاقات البحثية بين العلماء من مختلف البلاد الغربية، أو في مستوى الوسائل المخبرية، أو التمويل السخي من قبل الحكام والسياسيين، أو الحرية والأريحية التي تُمنح للباحث من قِبل بيئته ومحيطه.

وإنا لندرك أنَّ هذا المقام الحضاري لا يتأتى دون تضحيات جسام يسخو بها العالِم وطالب العلم، ثم السياسي وصاحب الثروة بالتبع... وإلا دخلنا في مشكلة الدَّوْر الذي لا يقدم في سلم الحضارة شيئًا، بل يؤخر.

• نظام قرآني متكامل

ثم إنني في الملمح الثالث تأملت آيات القرآن الكريم طويلا وتفكَّرت فيها، وأعتقد اليوم أنَّ "نظامًا" دلاليًّا، وصوتيًّا، واجتماعيًّا، ونفسيًّا، وفكريًّا، وحضاريًّا... يحكم هذا الكتاب الكريم، ومن خلاله يحكم واقع البشرية في كل حين. وأجزم أنَّ البشرية -إلى اليوم- لم تكتشف هذا النظام ولم تلمس أسراره وإن أحست آثاره، باستثناء ما كان من رسول الرحمة محمد ﷺ، والمدرسة التي أسسها وسهر عليها من صحابته وخلفائه والطاهرين من الرعيل الأول، غير أن الأمة أضاعت معالم هذا النظام حين ابتعدت عن مبادئ هذه المدرسة، فاختفت أنوار هذا النظام بفعل "السياسة"، وبسبب "الحنين إلى البداوة"، وجراء "تكديس أشياء الحضارة" في العهد الأموي ثم العباسي وما والاهما.

لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضيًّا يستغله الرجل الواحد أو يضلِّله الشيء الواحد، بل ليكن سيرنا علميًّا عقليًّا حتى نرى أنَّ الحضارة هي جوهرٌ ينتظم جميع أشيائها وأفكارها وأرواحها ومظاهرها، وقطبٌ يتجه نحوه تاريخ الإنسانية.

وعلينا اليوم -إذا أردنا العودة إلى مقدمة البشرية- أن نعيد اكتشاف هذا النظام من جديد، لكن يستحيل ذلك بجهود فردية، أحادية، زعامية، ادعائية، مبتَسرَة... يقول "مالك بن نبي" عن هذا المنحى الأحادي المشؤوم: "وهكذا ننتقل من وهم لنتخبط في وهم، ولا ندري كم من السنين سوف نقضيها لندرك عجز الأشياء الوحيدة عن حل المشكلات... إنما لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضويًّا يستغله الرجل الواحد أو يضلِّله الشيء الواحد، بل ليكن سيرنا علميًّا عقليًّا حتى نرى أنَّ الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفَّقة، ولا مظاهر خلابة وليست الشيءَ الوحيد، بل هي جوهرٌ ينتظم جميع أشيائها وأفكارها وأرواحها ومظاهرها، وقطبٌ يتجه نحوه تاريخ الإنسانية".

• نحو منهج قرآني للتاريخ والمستقبل

والملمح الرابع ينبِّهنا إلى أنَّ الأوان قد حان ليكون لنا "علم وفلسفة للتاريخ"، أو علم جديد ليس له اسم بعدُ؛ يحلّل ما مضى من إنجازاتنا الحضارية، ويلج إلى خفايا معابد العلماء وزوايا الصناعيين وإبداعات الفلاحين، ويعالج نظام الحسبة والأوقاف والعسكر... كما يدرس إخفاقاتنا السياسية ويرصد الحماقات والسقطات، متخذًا في ذلك ميزانًا واحدًا هو ميزان القسط والعدل، مبتعدًا أوان ذلك ما استطاع عن تأثير العصبية

والانتمـاء، وقاصدًا من وراء ذلك هدفًا واحدًا هو معرفـة الحق لتمثله، وإدراك الباطل لتفاديه.

والعيـب كل العيـب فـي علومنـا اليـوم، أنهـا تترعرع في جـزر متباعدة، فلا التاريخ يلتقي بالشـريعة، ولا الفكر يلتحـم مـع علـوم الطبيعـة، ولا علـم النفس يخـدم مناهج الدعـوة... إلا ما يكـون مبادرات ومؤلفـات لا ترقى إلى درجة المنحى المعرفي العام.

فـإن نوفَّـق اليـوم فـي إنتـاج مثـل هـذا التاريـخ المتكامـل الجوانـب والتخصصـات، في شـكل موسـوعات تحليليـة جماعيـة ذات أبعاد إسـلامية إنسـانية شـمولية، نكن -بلا شك- قد خطونا الخطوة الصحيحة الأولى نحو "المنهج القرآنـي" للتاريـخ، وخطوة أخرى نحـو التصحيح الحضاري وبناء المستقبل.

• والتوجـه وجهة المسـتقبل هـو الملمح الخامـس، فإنَّ التاريـخ سـنن لا تتبدل ولا تتغير، ونتائـج لمقدمات لا تغيب ولا تتخلف، والمستقبل يصبح ممكن التصور والرصد، تمامًا مثـل رصد الأحـوال الجوية بنـاء على مقدمات ومشـاهدات آنية، ويشـبه ذلك عملية إدراك تكسـر الإناء بعد لحظات من إلقائـه من علٍ إذا كان من زجاج... فديدن السـحب أن تمطر في ظـروف الإمكان، وقانون الزجاج أن يتكسـر بالصدمات، ومن سنة التاريخ أن النهايات تأتي ظلا لمؤشراتها، والخواتم تتبع مقدماتها.

ولا ينبغـي أن يسـتهوينا الشـاذُّ فنقيس عليه، بـل علينا أن نعتبـره -بعد حفظه- مثبِّتًا للقاعدة. فإذا أردنا مسـتقبلاً يمكَّن فيه لديننا، فعلينا أن نزرع أسـباب الحضـارة والتمكين بهدوء وتُؤَدَةٍ ووعي، وذلك بإعداد رؤى مستقبلية ذات صبغة عالمية، وبإنجاز مخططات واقعية جريئة ذات صفة شمولية.

إذا أردنـا مسـتقبلا يمكَّـن فيـه لِديننا، فعلينـا أن نزرع أسـباب الحضارة والتمكين بهـدوء وتـُؤَدَة ووعـي، وذلـك بإعـداد رؤى مستقبلية ذات صبغة عالمية، وبإنجـاز مخططـات واقعيـة جريئـة ذات صفة شمولية.

فكمـا أن "الجـداول الرودلفية" تمكننا مـن توقع قد يصل إلى ألف سنة، وكما أن الجداول الفلكية في عصرنا تستشرف حسـابات دقيقة لملايين السنين في المسـتقبل، فإن بالإمكان بنـاء جداول تتخذ من القرآن منطلقهـا، ومن النفس والتاريخ والحضارة والطبيعة البشرية ومخططات الحضارات وسائلها، لتدلنا على مستقبل يقدَّر بعشرات السنين، بنسـبة مـن الخطـأ صغيرة غيـر معتبرة.

المطلوب "إعادة قراءة" القرآن

و"النظـام القرآنـي" فـنٌّ يجـب أن يُلتفـت إليه فـي ميزان الفهـم والإدراك الحضاري، فقول الله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَجَاعِـلُ الَّذِيـنَ اتَّبَعُـوكَ فَـوْقَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِلَـى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ﴾(آل عمران:٥٥) حـق لا ريـب فيه، لكن ينبغـي أن نفهم مكوناته وأجزاءه: فمـا معنى "الجعل"؟ ومَن هُم "أتباع عيسـى عليه السلام"؟ وما دلالة "الكفـر"؟ وما شـكل "الفوقيّـة"؟ وكيف نطبق الآية على مسـار التاريخ والأنفس والحضارات؟ وهذا هو السؤال الأهم. هذا هو المنهج الأمثل لصناعة التوقع والتخطيط المسـتقبلي لأمة المصطفى ﷺ، ولا ينبغي لنا أن نتوقف عند نقطة الفهم اللغوي، ثم نترك الدرس الحضاري بين يدي أناس لا يفقهون من كلام الله شيئًا.

وملخـص هـذه الأطروحـة دعوة إلـى الصبر فـي البحث العلمـي، ونـداء إلـى إعـادة قـراءة القـرآن الكريـم (الكتـاب المسـطور) بنفـس الجهـد الـذي بذلـه الغـرب -ومـن قبلـه المسـلمون- فـي قـراءة الكون (الكتـاب المنظـور). والقصد مـن هـذه القـراءة هو اكتشـاف "النظـام القرآني" الـذي غاب عـن الأمة، وكرسـت غيابَه السياسـة الجائرة ولا تـزال، وإنها فـي ذلـك لمن المتفوقين. ثم إني أذكِّـر بضرورة الاجتهاد في تحليل تاريخ الأمة بشـمولية وروح إسـلامية إنسـانية عالمية، وبوجـوب التوجـه وجهة الدراسـات المسـتقبلية، والتخطيط الحضـاري الواعي، مـن منطلق قرآني يعتمد السـنن والرؤى الكونية الكلية الحضارية.

ولعل الوسـيلة -فـي تقديري- تكمن في العـودة إلى آلية "المطياف القرآني" التي طرحتُها منذ أزيد من عشـر سـنوات، ولـم تلـق الاهتمام المرجو إمـا لأنني لم أحسـن عرضها، أو لأنهـا كانـت في غيـر زمانها وفي غيـر مكانهـا. والأهم أولاً وآخـرًا هو إرسـاء قواعد ﴿خَيْـرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّاسِ﴾، بكل مقايس الخيرية. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

د. إبراهيم شوقار*



رعاية سنة العدل الإلهي

أساس بناء تراث بشري مشترك

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٨).

إن السعادة البشرية في الدنيا -في نظر سعيد النورسي- مرتهنة بإجراء العدالة، ولا تنفذ العدالة إلا كما بيّنتها الشرائع السماوية وفي مقدمتها القرآن الكريم. ولذلك فالعدالة غاية إنسانية كونية، ولكن لا تُدرَك إلا باتباع الحق الذي هو نقطة الارتكاز الأساسية في ميزان العدل الإلهي الذي به قامت السموات والأرض، وبه أُنْزِلَت الكتبُ وبُعِث الرسل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾(البقرة:٢١٣). وبذلك لم تَعُد الحرب والغلبة هي الوسائل المشروعة في تحقيق الحق بين الناس، ولكن الحجة في الإقناع هو القانون الذي جاءت به الشرائع وما ينبثق عنه من فطرة العقل والمنطق السليم.

إنه ليس من العدالة في شيء إفناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمرة بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم. فالحقيقة

-كما بينها النورسي- أن الحروب المدمرة في هذا العصر ليست لأجل إحقاق الحق وإرساء الحقيقة، ولا لأجل إعلاء شأن الدين وإقرار العدالة، بل تستند إلى العناد والعصبية القومية والمصلحة النوعية وإشباع أنانية النفس، فترتكب مظالم شنيعة ومآسٍ أليمة لم يُر مثيل لها في العالم.

الناس جميعًا متفقون على حب العدالة وإجلالها، لأنها هي السبيل الوحيد الذي يحمل الناس على حب السلام، وجعلها خيارًا إستراتيجيًّا لهم في الحياة، ولكنهم قد يختلفون في مصدرها أو في وسائل تحقيقها. ولذلك فإن مفهوم العدالة -كما تجلت في رسائل النور- أي الكوني والشرعي، يصلح أساسًا لبناء تراث بشري مشترك؛ من حيث إن الإنسان مأمور بالفطرة وبالشرع بإقامة العدل في المجتمع. فالذي لا يؤمن بالشرائع الدينية، ملزم بإقامة العدل وفق الشريعة الكونية، وعندئذٍ تتحقق العدالة في الطبيعة وفي المجتمع البشري معًا. وقد سعى النورسي إلى تحقيق هذه الغاية من خلال نقده العميق للحضارة المادية المعاصرة.

الأسس الفلسفية للحضارة المعاصرة

كل الخلائق تحترم نظام العدالة الإلهية في الكون، ولا يعرضه للخطر والتخريب إلا الإنسان، ولذلك يقول النورسي: "اعلم، أن الاقتصاد والطهر والعدالة سنن إلهية جارية في الكون، ودساتير إلهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها، لا يفلت منها شيء إلا أنت أيها الشقي، وأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة، تجد النفرة منها والغضب عليك وأنت تستحقها".

العدالة غاية إنسانية كونية، ولكن لا تُدرَك إلا باتباع الحق الذي هو نقطة الارتكاز الأساسية في ميزان العدل الإلهي الذي به قامت السموات والأرض، وبه أُنزلت الكتبُ وبُعث الرسل.

فالذي خالف الموجودات في سير النظام الإلهي في الكون القائم على الحق والاقتصاد والطهر بصورة واضحة، -في نظر النورسي- هي الحضارة المادية السائدة منذ عصره حتى اليوم. فهذه الحضارة -في نظره- قائمة على أسسٍ تعارض تلك الخصائص الكونية في حركة الموجودات، أعني الاقتصاد والعدل والطهر، بل تناقضها كلية. فهو يرى "أن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة تدور عليها رحاها:

١-فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة.

٢-هدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة، التزاحُم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية.

٣-دستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام، التنازُع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

٤-رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها وتتقوى بابتلاع الآخرين، وشأن القومية السلبية والعنصرية، التصادُم المريع وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

٥-خدمتها الجذابة: تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل

العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائمًا؛ مسخ الإنسان وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخًا معنويًّا".

يظهر من هذا العرض بجلاء، أن أهم نتيجة لانفصام الصلة بين الإنسان وسنن الشرع الإلهي هي الخلط في المفاهيم القيمية، فإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة، وإذا بالظلم يلبس قلنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمن زهيد، ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله، ويسمى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية.

الأسس السليمة لبناء تراث بشري مشترك

أما القاعدة السليمة لإيجاد أرضية مشتركة نحو بناء حضارة تتمتع بسمعة عالمية في نظر النورسي، فتقع خارج دائرة نُظم الحضارة المعاصرة. فقاعدة الحضارة الكونية لابد أن تكون قائمة على أسس الشرائع السماوية، وهي حضارة إيجابية تدور سعادتها حول خمسة أسس إيجابية:

١–نقطة استنادها: الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائمًا العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء.

٢–وهدفها: الفضيلة بدَلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها المحبة والتجاذب.

٣–وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشرية هي الرابطة الدينية والوطنية، والمهنية بدلاً من العنصرية، وهذه شأنها الأخوة الخالصة والسلام والوئام والذود عن البلاد عند اعتداء الأجانب.

٤–ودستورها في الحياة: التعاوُن بدل الصراع والجدال، والتعاوُن من شأنه التساند والاتحاد.

٥–إن من أهم مظاهر العدالة في الحضارة الكونية: كون القوة خادمة للعدالة، وأن هذه الحضارة العالمية لا تعترف بغير المعايير الأخلاقية حدًّا للتميز بين البشر، فلا تعترف بالعنصرية ولا بالقَبَلِيّة ولا بالعصبية، بل تدعو الناس إلى علاقات عامة وروابط محايدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣).

طلب التوفيق في الأعمال بموافقة السنن الكونية

إذا كانت الحضارة المادية المعاصرة مالت إلى معرفة أسرار الكون دون استرشاد بسنن الشرع وافتُتنتْ بقوانين الطبيعة، فإن المسلمين أيضًا –في نظر النورسي– ليسوا بمنجاة عن التقصير الموجب للملامة والعتاب. فهم مع تمسكهم بشرائع الإسلام، تكاسلوا عن السعي في كشف أسرار الله في الوجود، ومع ذلك طلبوا التوفيق في أعمالهم فلم يحصدوا إلا الإخفاق والخذلان. فالسعي الجاد والصبر والمصابرة لاستكمال الشروط، وقطع الموانع، سننٌ إلهية عامة –في نظر النورسي– ومن نواقضهما الكسل والعجلة التي تُشوّش مراحل العلل وتقود الإنسان للاستسلام إلى اليأس، وهو العدو المانع لبلوغ الكمالات. فالنواميس الاجتماعية لا تختلف عن النواميس الكونية، وما فقَد المسلمون الإمساك بناصية الحضارة وتخلّفوا عن الركب وتقدم غيرهم –في نظر النورسي– إلا لسببين:

الأول: الفتور في السعي وعدم الرغبة في العمل، خلافًا لما هو مستفاد من الأمر الرباني: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾(النجم:٣٩)، وانطفاء جذوة الشوق للكسب المستفاد من الأمر النبوي بأن "الكاسب حبيب الله". وذلك نتيجة إيحاءات بعض رجال الدين وتلقينات قسم من الوعاظ الجاهلين، أولئك الذين لم يدركوا أن إعلاء كلمة الله في الوقت الحاضر يتوقف على الرقي المادي. وهؤلاء لم يفرّقوا بين قناعتين بعيدتين عن بعضهما: القناعة في التحصيل والكسب وهي المذمومة، والقناعة في المحصول والأجر وهي الممدوحة. ولم يتبينوا البون الشاسع بين "التواكل" الذي هو عنوان الكسل و"التوَكّل" الذي هو جوهرة الإخلاص الحقيقي. فالأول هو تكاسل عن ترتيب المقدمات وهو في حكم التمرد على النظام القائم بين الأسباب التي هي مقتضى مشيئة الله تعالى، والآخر هو توكل إيماني في ترتُّب النتائج وهو من مقتضيات الإسلام، والذي يقود صاحبه إلى التوفيق حتى في النتائج شريطة عدم التدخل في التقديرات الإلهية.

الثاني: هو سلوكنا في المعيشة مسلكًا غير طبيعي، مسلكًا يوافق الكسل ويلائمه، ويداعب الغرور ويربت عليه، وهو المعيشة على الوظيفة، أي القناعة على أسلوب واحد بعينه للكسب دون النظر إلى أبواب الله في سائر الجهالات الأخرى.

يتبيّن من هذا، أن الوعي بالسنن الكونية والعمل وفق السنن الشرعية، يُخرج عوامل النهضة الحضارية من طور الكمون إلى الفعل، أي من حالة الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل. ولكن ثمة ثلاثة شروط نحو نيل التوفيق بهذا الوعي الحضاري:

النيـة الصادقة المعززة بالخطط المدروسـة، العمل الجاد، ثم الإخلاص الذي هو شـرط للإتقان والجودة. يقول النورسي: "يا إخوة الآخرة، ويا أصحابي في خدمة القرآن، اعلموا -وأنتم تعلمون- أن الإخلاص في الأعمال لا سـيما الأخروية منها، هـو أسـاس وأعظم قوة وأرجى شـفيع وأثبـت مرتكز وأقصر طريـق للحقيقة، وأبـرّ دعاء معنوي وأكرم وسـيلة للمقاصد".

إن إحـراز التوفيق -في نظر رسـائل النور- في حاجة إلى تضافر ثلاثة عناصر: النية، الإخلاص، ثم العمل وفق سنن الله في الكون، فاطلبوا التوفيق في أعمالكم بموافقة السنن الكونية.

خلاصة القول، من أجل إيجاد عالم أفضل للبشرية، يجب العمل بالشريعتين معًا؛ الشريعة الكونية والشريعة الدينية، لأن التمـرد علـى أيّ منهمـا كالتمـرد عليهما معًا. فسـبحان الذي بعدلـه قامـت الأرض والسـموات، وهو الذي خلـق الوجود بحكمـة وأودع فيـه مـن جميـع أصنـاف الكائنـات، وبإرادته الحكيمـة جعل هذا التوازن سُـنّة له كونيـة ارتبطت بها حركة جميع الموجودات، كما ارتبطت بسننه الشرعية التي بيّنها على لسـان رسله أسباب سـعادة الإنسان وقيام الحضارات، فجعل فـي الأولـى مفاتيح حركة الوجـود، وفي الثانيـة دلائل الحق وعناصـر العدل التي تهدي الإنسـان في حالـك الظلمات. ■

(*) كلية العلوم، الجامعة الإسلامية العالمية / ماليزيا.

المراجع

(١) اللمعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٢) الملاحق، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٣) صيقل الإسلام، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٤) سيرة ذاتية، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٥) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، لبديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٦) مفاتح النور، لفريد الأنصاري، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٧) مجمـوع الفتـاوى، لابـن تيمية أحمد بن عبد الحليـم، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، السعودية ١٣٩٨هـ، جـ:١٣/١٩-٢٠.

(٨) العدالة الاجتماعية في الإسـلام، لسـيد قطب، نسخة بالإنجليزية: ترجمة جون هاريدي، ط: "خزانة الكتب-كوالالمبور"، ماليزيا ٢٠٠٠م.

(٩) كتـاب التعريفات، للسـيد علي بن محمـد الجرجانـي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٣م.

(١٠) الإسلام ومتطلبات العصر، لمرتضى مطهري، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت ١٩٩٢م.

(١١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠١م.



لكُما فلْيكنْ نشيدنا

كم للطفولة غَنَّى الكثير،
ولها عزف، وبأناشيدها ترنَّم...
وها أنذا اليوم، على وتر قيثارتي،
من أجلكما أعزف، ولكما أُنشِد...
وأنتما تسارعان الخطى نحو إشراق الفجر...
أرجوكما، خطايانا اغْفرا، وعن ذنوبنا تسامحا...
فكم كنّا عن بؤسكما مسؤولين،
وعن عيشكما في ظلمات النسيان مخطئين!..

* * *



د. الحسين زايد*



يُسقى بماء واحد

لا يجادل أحد في أن للماء أهمية بالغة بالنسبة للكائنات الحية، فمن هذه المادة خلق الله ﷻ كل شيء حي مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء:٣٠)، ومنها أوجد الله ﷻ كل دابة: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾(النور:٤٥)، وبدونها تصبح الأرض تارة هامدة: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(الحج:٥)، وتارة أخرى خاشعة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(فصلت:٣٩).

وكثيرة هي الآيات التي يتحدث فيها الخالق ﷻ عن دور الماء في إحياء الأرض بعد موتها، ولكن المشهد ليس واحدًا، بل إن الإعجاز -كما يقول المهندس أحمد عامر الدليمي- أن تأتي الآيتان المتقاربتان في السياق وفي الألفاظ لتعطيا معنيين مختلفين قطعًا.

ولسنا هنا بصدد التحدث عن كيفية إحياء الأرض بعد موتها، ولكن الذي لفت انتباهنا هي العلاقة الوطيدة الموجودة بين التربة والنبات والماء في آية مبهرة فيها من الإعجاز ما يدعو للوقوف عندها، آية موجودة في مطلع سورة الرعد، حيث يقول فيها الحق سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعد:٤).

وقبل أن نتطرق إلى إظهار وجه الإعجاز في هذه الآية الكريمة، سنسوق ما جاء في مجموعة من التفاسير القديمة والحديثة.

أقوال المفسرين

تشابهت تفاسير كثير من علماء التفسير؛ كابن كثير، والقرطبي، والنسفي، والألوسي والبغوي، والبيضاوي للآية الكريمة: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعد:٤). فقد وردت نفس الأقوال في تفسير الجلالين وصفوة التفاسير، وصفوة البيان لمعاني القرآن، والتي يمكن تلخيصها فيما ذكره الطبري في تفسيره:

"يقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾، وفي الأرض قطع منها متقاربات متدانيات، يقرُب بعضها من



بعض بالجوار وتختلف بالتفاضل مع تجاورها وقرب بعضها مـن بعض، فمنها قطعة سَبِخة لا تُنبت شيئًا في جوار قطعة طيبة تُنبت وتنفع.

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾، يقول تعالى: وفي الأرض مع القطع المختلفات المعاني منها، بالملوحة والعذوبة، والخبيث والطيب، مع تجاورها وتقارب بعضها من بعض، بساتينُ من أعناب، وزرعٌ ونخيلٌ أيضًا، متقاربة في الخِلقة مختلفة في الطعم والألوان، مع اجتماع جميعها على شِرب واحد، فمِنْ طيّبٍ طعمُه حَسَنٍ منظرُه طيبة رائحتُه، ومِن حامض طعمُه ولا رائحة له.

وعن الحسن قال: هذا مَثَل ضربه الله لقلوب بني آدم، كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة، فسَطحها وبطَحَها، فصارت الأرض قِطَعًا متجاورات، فينزل عليها الماء من السماء، فتُخرج هذه زهرتها وثمرها وشجرها، وتخرج نباتها وتحيي مواتها، وتخرج هذه سَبَخها ومِلْحها وخَبثها، وكلتاهما تُسقى بماء واحد، فلو كان الماء مالحًا، قيل: إنما استسبخت هذه من قِبَل الماء، كذلك الناس خُلقوا من آدم، فينزل عليهم من السماء تذكرة فترقّ قلوب فتخشع وتخضع، وتقسو قلوب فتلهو وتسهو وتجفو.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: إن في مخالفة الله ﷻ بين هذه القطع من الأرض المتجاورات وثمار جناتها وزروعها على ما وصفنا وبينّا لدليلاً واضحًا وعبرة لقوم يعقلون. فلو شاء الله لسوّى بين جميع أكل ثمار الجنة التي تشرب شربًا واحدًا، وتُسقى سقيًا واحدًا، وهي متفاضلة في الأُكُل".

والآن، وبعد عرض أقوال المفسرين حول تفسير هذه الآية الكريمة، لنلقِ نظرة مفصلة عن تطور مفهوم تكاثر النبات ونموه وكيفية تغذيته، وعلاقته بالتربة والماء، وهو ما اصطُلح عليه بـ"علم وظائف أعضاء النبات".

تطور علم وظائف أعضاء النبات

إذا قارنّا ظاهرة التغذية عند النبات مع ما يقع عند الحيوان، نجد أنه من السهل التعرف على النظام الغذائي لدى الحيوان، وذلك من خلال الملاحظة المباشرة والملموسة، من اقتناصٍ للفريسة، وابتلاعٍ للطعام، وقضمٍ للعشب والكلأ وأكله، بينما يصعب التعرف على كيفية التغذية عند النبات نظرًا لانعدام هذا النوع من العلامات البديهية، فضلاً عن بطء النمو والانعدام النسبي للحركة عند النبات. فظهرت قديمًا أفكار وأينعت معتقدات لا تمتّ إلى المنطق بأي صلة، ورُسمت نماذج في محاولة تفسير الظواهر الطبيعية.

والنموذج هو ذلك التصور الذي يضعه العلماء لظاهرةٍ لم يستطيعوا ملاحظتها بصورة مباشرة ولا معاينتها عن قرب، ويقومون بإعداد هذا النموذج من خلال ملاحظات غير مباشرة، ومن خلال فرضيات متحقق منها، ومن المعلوم أن النموذج يتطور مع الزمن.

وهكذا فإن هدف المساعي العلمية هو الاتفاق تدريجيًا



على نموذج يرى العلماء بالإجماع أنه هو الأنسب، معتمدين في ذلك على مجموعة من الملاحظات والتجارب، غير أن هذا النموذج سرعان ما يصبح لاغيًا مع تطور العلم والتقنيات المستعملة.

نظريات نمو النبات قديمًا وحديثًا

كان أرسطو -الفيلسوف الإغريقي (٣٢٢-٣٨٤ ق.م)- يظن أن النباتات تتكون من عناصر الأرض، وتتغذى على الدُّبال الذي تجده في التربة. فكل المواد -على زعمه- تأتي من الأرض؛ فعندما تنمو شجيرة ما، فهذا يعني -بالنسبة لأرسطو- أن التربة تحولت إلى مادة نباتية.

ومع مرور الزمن، ترجَّح لعلماء الطبيعة أن النبات يجد في الأرض المواد التي يحتاج إليها في حُلة جاهزة، يستخلصها جاهزة بواسطة جذوره. وهكذا فإن الأغصان والأوراق والأزهار والفواكه تُستخلَص كلها من الأرض، تمتصها الجذور وتوصلها إلى مناطق معيّنة من النبات. وبهذا المنطق فإن النبات كان -بزعم علماء ذلك العصر- يتمتع بقدرة الاختيار من بين المواد المتوفرة في التربة، أيها أصلح إليه وأنسب لحاجياته. وطبعًا فإن هذه المعتقدات شبه العلمية، لم تكن تستند على أيّ أساس علمي يُذكر من ملاحظة أو تجربة أو برهان.

وظلت المعتقدات على هذا الحال حتى نهاية القرن السادس عشر (١٥٨٠م)، حيث تقدم العالم والفيلسوف الإيطالي "سيزالبينو" (Andréa Cesalpino) بفرضية مفادُها؛ أن المادة التي أخذها النبات من الخارج لابد لها أن تتعرض لتحوّلات داخل أعضاء النبات لتجعل منها مادة في شكل مناسب قابل للإدماج.

ورغم عدم إثباتها بالحجة الدامغة، فقد صادفت هذه الفرضية قبولاً وصدًى طيبًا في وسط علماء الطبيعة المعاصرين، والذين جاءوا من بعد "سيزالبينو" من أمثال "جونغ" (Jung) من ألمانيا، أو "فان هلمونت" (Van Helmont) من بلجيكا، أو "مالبيغي" (Malpighi) من إيطاليا.

تجربة "فان هلمونت"

ومع مطلع القرن السابع عشر، استطاع "فان هلمونت" (١٥٧٧-١٦٤٤م) أن يثبت المساهمة الهزيلة للتربة في زيادة وزن النبات من خلال تجربة أصبحت شهيرة فيما بعدُ.

قام "فان هلمونت" بغرس شجيرة الصفصاف في وعاء مملوء بالتربة بعد أن قاس وزن التربة. وبعد مرور خمس سنوات كاملة -وقد أصبح وزن الشجرة (٧٥ كغ)- أعاد هذا العالم وزن التربة فوجدها قد فقدت (٦٠ غ)، فتساءل عندها عن الجهة التي أمدت الشجرة بهذا الوزن، علمًا بأنه خلال هذه المدة الكاملة، لم يعط النبتة إلا ماء السقي. وكان استنتاجه أن الماء هو المسؤول الوحيد عن هذا الوزن.

أُجريت هذه التجربة في وقت لم يكن يُعرف فيه بعدُ أن المادة العضوية تتكون من الكربون.

وبعد تطور علم الكيمياء، أصبح جليًّا أن الماء وحده -في تجربة "فان هلمونت"- لا يمكن أن يفسّر تلك الزيادة الملحوظة في وزن الشجرة، لأنه لا يحتوي على عنصر الكربون. وهذا ما قام به "هيلز" (Stephen Hales) (١٦٧٧-١٧٦١م) بعد قرن من الزمن، حيث افترض أن كمية مهمة من الكتلة النباتية تأتي من ثاني أكسيد الكربون (CO_2).

هذا ويرجع الفضل للعالم السويسري "تيودور دي سوسير" (Théodore de Saussure) (١٧٦٧-١٨٤٥م) الذي استند على أعمال وتجارب "لافوازي" (Lavoisier)، وقدّم الحجّة على قدرة النبات على امتصاص ثاني أكسيد الكربون (CO_2)،



الماء ضروري لعمليات الأيض في النبات، وهي مجموعة التفاعلات الكيميائية التي تحدث داخل الخلية، ويتم فيها بناء جزيئات كبيرة ومعقدة من جزيئات بسيطة، وتحطيم بعض الجزيئات الكبيرة لاستخلاص الطاقة الكيميائية المختزنة فيها.

وتحويله إلى مادة عضوية وطرح غاز الأكسيجين (O_2).

ووجب انتظار القرن العشرين لتتم البرهنة على صحة ادعاء فرضية "هيلز". ومنذ ذلك التاريخ، أخذ علم وظائف أعضاء النبات طريقه الصحيح، فعرف تطورات هائلة في تفسير الظواهر الفسيولوجية التي تطرأ داخل خلايا وأنسجة النبات؛ من تبادلات كيميائية مهمة، وتفاعلات حيوية معقدة، وإفرازات هرمونية مثيرة.

قبسات من رحاب الآية

والآن وبعد هذه اللمحة التاريخية لعلم وظائف أعضاء النبات، والتي عرفنا من خلالها مدى بطء تطور هذا العلم عبر العصور، وانعدام دقته زمان نزول الوحي في وصف الظواهر الطبيعية من نمو النبات وتكاثره وكيفية تغذيته، لنرجع إلى الآية المعجزة لنتدبر معانيها ثانية على ضوء المعطيات العلمية التي تتوفر لدينا.

فالآية الكريمة تتطرق لمحاور أربعة: قِطَع متجاورات، جنات من أعناب وزرع ونخيل، ماء واحد يسقي هذه الفصائل المختلفة من النبات، تفضيل بعضها على بعض في الأكل.

الماء حيويٌّ في عملية الإنبات

من المعلوم أن الماء يلعب دورًا مهمًّا وحيويًّا في حياة النبات، فلولاه ما كان الإنبات ولا النبات ولا الحياة. فالماء ضروري لعمليات الأيض وهي مجموعة التفاعلات الكيميائية التي تحدث داخل الخلية، ويتم فيها بناء جزيئات كبيرة ومعقدة من جزيئات بسيطة، وتحطيم بعض الجزيئات الكبيرة لاستخلاص الطاقة الكيميائية المختزنة فيها.

وتكمن هذه الأهمية في كونه يشكل وسطًا ناقلاً تنتقل فيه نواتج عملية البناء الضوئي أو التركيب الضوئي -التي تتم داخل الخلايا اليخضورية للأوراق- والأملاح الممتصة من التربة، فضلاً عن أن معظم تفاعلات الخلية تتم فيه. كما يشكّل دعامة للنبات عن طريق ضغط الامتلاء، ويعمل كمُنظّم لدرجة حرارة النبات.

أما بالنسبة لطرق حصول النباتات الراقية على الماء، فتتم عن طريق الشعيرات الجذرية بعملية الامتصاص من التربة إلى الجذور بعد أن يذيبها الماء. ويخضع انتقال الماء لقوانين فيزيائية دقيقة -القوة الأسموزية- تتحكم في ميكانيكية حركته من التربة إلى الجذور فالأوراق فالهواء الجوي عبر مجموعة من الأوعية والقُصيبات.

وإلى جانب الماء، فإن التربة -التي ينمو فيها النبات ويستمد منها جُل احتياجاته الغذائية- والمناخ -بعناصره المختلفة من حرارة ورطوبة ورياح وضوء وغيرها- يُعتبران من أكثر العوامل البيئية تأثيرًا على صفات النبات ونموه وإزهاره وإثماره، وبالتالي على الزراعة باعتبارها المصدر الأساسي والرئيس في توفير غذاء الإنسان.

التربة مسرح للتفاعلات الكيميائية

إن التربة تعتبر مسرحًا للتفاعلات الكيميائية التي تتم في المنطقة الانتقالية بين طوري التربة "السائل والصلب"، فتتكون مُعقدات أيونية، وتنشط الأيونات المنفردة في محلول التربة، وينتُج عن تلك العمليات ترسيب أو إذابة أو امتزاج،

تبعًا لخواص التربة من حموضة وقلوية، ووضع العناصر المعدنية فيها.

والجدير بالذكر أن للعناصر المعدنية مجموعة كبيرة من الوظائف في النبات، وعلى رأسها التركيب الضوئي؛ فمن العناصر ما هو ضروري لتكوين الهرمونات في النباتات، ومنها ما يلعب دورًا رئيسًا في عملية تشكيل البروتينات في النباتات، ومنها ما له علاقة بحركة السكريات إلى أماكن تخزينها -في الجذور أو الجذوع أو الأوراق- الشيء الذي قد يُفضي إلى اختلاف في الطعم: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾.

القرآن يجدد أحاسيس البشر بالمشاهد في الكون والنفس

وفي هذا الصدد، يقول صاحب الظلال: "مَن منا لم يذق الطعوم مختلفات في نَبْت البقعة الواحدة، فكم منا التفت هذه اللفتة التي وجَّه القرآن إليها العقول والقلوب! إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديدًا أبدًا؛ لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس وهي لا تنفد، ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ومرة ثالثة نقف أمام التقابلات الفنية في اللوحة بين: القطع المتجاورات المختلفات، والنخل صنوان وغير صنوان، والطعوم مختلفات، والزرع والنخيل والأعناب، تلك الجولة الهائلة في آفاق الكون الفسيحة".

وبصدد الحديث عن البناء الضوئي، تلك العملية الحيوية المهمة التي يعتبر النبات مسرحًا لها، والتي يتم خلالها إنتاج مواد عضوية معقدة (سكريات) من مواد غير عضوية أوّلية بسيطة، زيادة عن إنتاج الأكسجين اللازم لعملية التنفس، والتخلص من ثاني أكسيد الكربون السام والمسبب لظاهرة الاحتباس الحراري، فإن الماء يُعدّ من العناصر اللازمة لحدوثها.

والنباتات، بجانب الطحالب وبعض أنواع البكتيريا الزرقاء، تعتبر الكائنات الوحيدة التي باستطاعتها أن تُجمّع الطاقة الشمسية، وتستخدمها كوقود لنموها، فهي بذلك تسمى "كائنات منتجة"، على العكس من الحيوانات التي تُعتبر مستهلكة.

أما بالنسبة للفصائل النباتية المذكورة من أعناب وزرع ونخيل، فلا بأس من الإشارة إلى ما ذهب إليه الباحث محمد طاهر محمد موسى بشأن تصميم مزارع الأعناب؛ حيث اعتبر الزرع نبات التغطية الذي يحمي التربة من التعرية ويحفظ رطوبتها، والنّخل من مصدّات الرياح التي تحمي من العواصف وتثبت الرمال. إلا أننا لا نظن أنه أريد به هنا، التركيز على هذه الفصائل بعينها، بل نعتقد أن هذه الفصائل سِيقت كنماذج لأنواع النباتات من أشجار (النخل) وشجيرات (أعناب)، وكل نوع من أنواع الحبوب أو ما يشابهها من أعشاب (الزرع)، ورغم اختلافها فإنها تشترك في الجذور والساق والأوراق، وأساسيات التغذية لديها تخضع لنفس القوانين من إذابة للعناصر المعدنية الأساسية التي سيبني النبات بواسطتها مواده ومركّباته الحيوية المختلفة وامتصاصها.

ويرجع هذا إلى مقدرة الماء العالية في فصل الجزيئات المتأيّنة وغير المتأيّنة، بعيدًا عن بعضها البعض، كما أن بإمكان النبات أن يحافظ على الماء حتى لا يصل إلى نقطة الذبول ويضحى مهددًا بالموت.

وجه الغرابة في اختلاف الثمار والطعم

قد يتساءل سائل، وما الغرابة في اختلاف الثمار والطعم ما دامت التربة التي تغذّي هذه الأشجار هي نفسها مختلفة، وما دام المناخ الذي تعيش تحته هذه النباتات مختلفًا كذلك؟!

لكن لو افترضنا أن القطع متجاورة، فهذا سوف يعني بالتالي أن الظروف البيئية السائدة على البساتين، ستكون حتمًا على العموم واحدة أو متقاربة، مما يمنح الماء الذي تُسقى به هذه الفصائل النباتية دورًا أساسيًّا في سبب اختلاف الثمار والطعم.

وكلمة ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ تعني "متدانيات" كما جاء في قصة النساء اللاتي كنّ متجاورات في دارٍ، وقد استُشهد رجالهن يوم أُحُد، فجئن رسول الله ﷺ وقلن: إنا نستوحش بالليل، فنبيت عند إحدانا، حتى إذا أصبحنا تبادرنا إلى بيوتنا، فقال رسول الله ﷺ: "تحدثن عند إحداكن ما بدا لكُنّ، حتى إذا أردتن النوم فلتؤب كل امرأة إلى بيتها". (ابن القيم في زاد المعاد ٦١٥/٥). فلو حذفت كلمة ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ التي هي نعت لقطع لَقيل: إن هذه النباتات واختلاف طعمها إنما هو راجع إلى اختلاف تربة هاته القطع. ■

(*) كلية العلوم، جامعة محمد الخامس / المغرب.

أ.د. بركات محمد مراد*



تعلمنا الكثير، وقرأنا الكثير، وكتبنا الكثير، لكننا لم نتعلم كيف نثقّف أجيالنا بثقافة أمّتنا الأصيلة، ونعلمها كيف تحترم هذه الثقافة، وتأخذ منها، وتستعين بها على إنارة طريقها، فضعْنا وضاع جهدنا، ولم نجْنِ ما كُنَّا نؤمّل من نهوض حضاري منتظر.

* * *

الفن الجميل

معاناة رؤية مستبصرة

كان الفنان المسلم يوظف الجماليات عبر الفنون توظيفًا ارتقائيًا، يجعل منها معراجًا يرقى به الوجدان من الجميل إلى الجليل. فالرؤى الجمالية في المنظور الإسلامي هي عبارة عن طرق عدة نقطة الوصول فيها واحدة. فكل الفنون الإسلامية إنما تنطلق من نقاط مختلفة على محيط الدائرة لتصب في مركز واحد. ومن نتيجة وحدة المقصد هذه، أو قُلْ وحدة توظيف الجمالي للمقصد الجلالي، تتشابه الفنون الإسلامية أو تتقارب إلى حد كبير بما يسقط قيمة الخصائص الإقليمية أو الجغرافية في الفنون الإسلامية.

وقد وجدنا أن الفنان المسلم قد عاش تجربة التوحيد من خلال فنه وتجربته الإبداعية، إما عن طريق تأمله للأشياء وتصويرها تمثيليًا أو عن طريق تجريده للأشياء من تجسيماتها وتصويرها خطوطًا ومسارات، وكلا النوعين من الرؤية الفنية ينبع من رؤية معرفية يتبعها الفنان للوصول إلى التوحيد. ومن هنا لم يكن غريبًا أن يعبر فن الأرابيسك أو الخط أو الزخارف الهندسية التجريدية -مثلاً- عن مضمون الإسلام الروحي المتمثل في التوحيد.

وسيتبين لنا كيفية انتقال المعاني الروحية الإسلامية إلى صيغ جمالية دنيوية، وكيفية تمكن الفنان المسلم من التعبير عن الموجود اللامتناهي في كماله، والذي يعجز دائمًا في التعبير عنه بالكلمات والعبارات والتصورات، من خلال مفهوم التجريد والرمزية والتأسلب. وسنجد أن الفن عند الفرد المسلم ليس هو الفن ابتغاء الفن كما يرى أصحاب مبدأ الجمالية، بل دائمًا الفن ابتغاء لوجه الله.

فنٌّ عالمي لا يعرف التطرف

إنه الفن الذي يعين خلق الله على أن يحققوا ما أراده الله لهم بنجاح أكثر، إنه الفن الذي مهما تكن صورته -مرئيًا أو أدبيًا أو موسيقيًا- فإنه يقوم بدور رئيس في تذكير الفرد المسلم دائمًا بعقيدته ومسؤولياته، وهو دائمًا معه في منزله أو في عمله وفي مسجده، يحيطه بتلك المناظر الخلابة والأصوات التي تقربه من دينه.

وعامة فقد استفاد الفن الإسلامي من كل فنون الحضارات السابقة -سومرية، أكادية، بابلية، فارسية- واستعار منها كل الحلول التشكيلية التي تتوافق معه، وسخرها في قوالبه الواضحة، بل أعطاها وجهًا جديدًا لا يمكن التعرف به على أصولها، وقد كفى هذا الفن مائة عام من الزمن لكي يترسخ في أعمال لم يعد بالإمكان نسبتها إلى الفنون القديمة التي أغنته.

وهكذا يفتح الفن في صيغته الإسلامية المتطورة آفاقًا لا حدود لها، لأنه فن لا نهائي، ويدرك بالحدس، وكلاهما أمران غير ملموسين يضعان أمام المُشاهِد آفاقًا من التصورات، وبالتالي يقدمان على الدوام إمكانات هائلة من أجل تلبية حاجاتنا الجمالية حتى اليوم. ولذلك فإن أساس إبداع الفن الإسلامي أن يكون العمل فيه على مراعاة مبدأين ضروريين وهما أولاً: أن الإسلام رسالة عالمية لابد من أن تتسامى فنونه إلى المستوى العالمي. ثانيًا: أن الأمة الإسلامية هي أمة الريادة العقائدية والفكرية والإنسانية للبشرية كلها، وهي ريادة لا تعرف الجموح أو التطرف. فعلى الفنون الإسلامية إذن، أن ترتفع إلى مستوى الريادة المعتدلة في تصوير القيم الإنسانية وتصوير أشواق الفطرة وآمال الإنسان وآلامه، استرشادًا بقوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

وبناء على هذين المبدأين، فإنه يجب لإنشاء فن إسلامي؛ أن يكون ملتزمًا في إبداعه بقيمتين إسلاميتين إنسانيتين؛ أولهما يبين أوجه الحلال وأوجه الحرام، وثانيهما تحديد الموازين والمعايير التي تحكم الرقابة الذاتية في حالة الإبداع الفني، والرقابة الموضوعية في حالة صناعة الأثر الفني وإخراجه.

الفن الجميل هو ذلك الذي يساهم في الارتقاء بحياة الإنسان سموًّا، ويساعد الإنسان على تقريب شقة الخلاف بين ما يبغي وما ينبغي، ويزيل كل التوترات التي تنشأ في نفس ذلك الإنسان.

وحين نحاول الإفادة من القرآن في مجال الفن -من حيث أنه مصدر معايير الالتزام الفني- فسنلجأ إلى ناحيتين معًا؛ "المفاهيم" و"طرائق الأداء"، لا لتقليدها وإنما لالتقاط "التوجيه" الذي تحمله والنسج على منواله فيما ننشئ من الفنون... فحين نجد أن القرآن يحتفي بمشاهد الطبيعة إلى حد يلفت النظر، فإننا نكون إسلاميين... حين نحس بالتجاوب الحي مع الطبيعة، بوصفها مشاهد جميلة متناسقة خارجة من يد المبدع العظيم، ثم نحاول التعبير عن هذه التجارب في صور موحية جميلة.

وحين نجد القرآن يستخدم القصة للتربية، ويضمنها كل توجيهاته المتمشية مع مفاهيمه عن الكون والحياة والإنسان، فإننا نكون إسلاميين في فننا... حين ننشئ القصة الهادفة، ونستخدمها للتوجيه -الفني لا الوعظي- ونجعل هذا



التوجيه في سبيل رفعة الإنسان، مع عدم الإخلال "بالواقعية" التي تحملها الفكرة الإسلامية؛ واقعية الواقع الكبير الذي يشمل الضرورات، ويشمل الأشواق، ويعطف على لحظة الضعف والهبوط، ولكنه يحاول أن يصعد منها إلى لحظة الرشد والإفاقة والانطلاق.

مقاييس الجمال في الفن الإسلامي

والفن الإسلامي مع ذلك ليس "مقيّدًا" بالموضوعات ولا بأغراض التعبير القرآنية ولا طرائق التعبير، فله أن يختار من الموضوعات والأغراض والطرائق ما يشاء، ولكنه مقيد بقيد واحد: أن ينبثق من التصور الإسلامي للوجود الكبير، أو -على الأقل- ألا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والحياة والإنسان. والمسألة هنا، ليست مسألة "الدين" بمفهومه الضيق، ولا مسألة "العقيدة" بمعناها التقليدي. إنها مسألة أن التصور الإسلامي كما يعرضه القرآن... التصور الصحيح المتمشي مع فطرة الكون كله والوجود، والذي تنطق به الفطرة البشرية ذاتها حين تهتدي إلى الناموس، الذي يصح أن يقال فيه إن مقاييس الجمال فيه هي مقاييس كونية تستند إلى التناسق الملحوظ في الكون الكبير، وأي تصور آخر يصطدم به أو يعارضه، هو تصور منحرف عن الناموس الأكبر الذي يشمل الوجود.

وليس من حق الفن أن ينحرف عن ذلك الناموس، لأنه بذلك يخرج عن "الجمال" الفني الذي يتسق مع الجمال الكوني، وليس التعبير عن الحياة أصوات شجية فحسب، ولا مجرد أصداء جوفاء تنبعث من فراغ الدعة والاستسلام.

ومن هنا، فالفن الجميل هو ذلك الذي يساهم في الارتقاء بحياة الإنسان سموًّا، ويساعد الإنسان على تقريب شقة الخلاف بين ما يبغي وما ينبغي، ويزيل كل التوترات التي تنشأ في نفس ذلك الإنسان. وإذا أدركنا أن الفن هو محاولة البشر أن يصوروا حقائق الوجود وانعكاسها في نفوسهم في صورة موحية جميلة، وأن مكان الفنان يتحدد بمدى المساحة التي تشملها الحقيقة التي يشير إليها العمل الفني أو يرمز لها من كيان الكون والوجود، إذا أدركنا ذلك فقد أدركنا -في الوقت ذاته- أن الفن الذي ينبثق عن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو أرفع فن تستطيع أن تنتجه البشرية.

إن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو أشمل تصور عرفته البشرية حتى اليوم، لأنه لا يأخذ جانبًا من الوجود ويدع جانبًا آخر، وإنما يأخذ الوجود كله بمادياته وروحانياته ومعنوياته وكل كائناته. إنه التصور الذي لا يجعل الحس بمعزل عن الحياة المنبثة في أعماق الكون، بل يطلق الحس ليتملى الحياة في كل شيء في هذا الكون.

إنه التصور الذي لا يأخذ الإنسان جسمًا ويدعه روحًا، أو روحًا ويدعه جسمًا، أو جسمًا وروحًا بغير اعتبار لطاقة العقل، ثم هو لا يأخذ هذه العناصر متفرقة منفصلة، بل يأخذها مترابطة متحركة -مع ترابطها- في واقع الحياة... ولا يأخذ الإنسان فردًا ويدعه جماعة، ولا جماعة ويدعه فردًا، وإنما ينظر إليه -في ذات الوقت- بوصفه فردًا وجماعة مترابطين ممتزجين غير منعزلين في الكيان... ولا يأخذه ضرورات قاهرة ويدعه أشواقًا طائرة، ولا أشواقًا ويدعه ضرورات، وإنما يأخذه بمجموعه كله، عاملاً حساب الضرورات والأشواق، ومكان كلتيهما من نفسه ومكانها من الحياة. ثم هو بعد ذلك لا يأخذ الإنسان وحده منعزلاً عن بقية الكون، أو منعزلاً عن بقية الأحياء، وإنما هو يأخذ الإنسان وغيره من كائنات الأرض وكائنات الكون، ويأخذ في اعتباره "الأحياء" وغير الأحياء، جاعلاً الكون كله بيئة شاملة للإنسان.

واقع الفن في التاريخ الإسلامي

ومـن هنـا، فليـس غريبًا أن نجد أن الحكم الإسـلامي منذ أن اسـتقر على يـد الأمويين في القرن السابع الميلادي، حتى وجدنا الخلفاء والأمراء على تنوع توجهاتهم الدينية والسياسية، يشجعون الفنون والآداب التي ساهمت في بناء الحضارة الإسلامية مثلما كانوا يشجعون العلم الذي ساهم في هذا البناء.

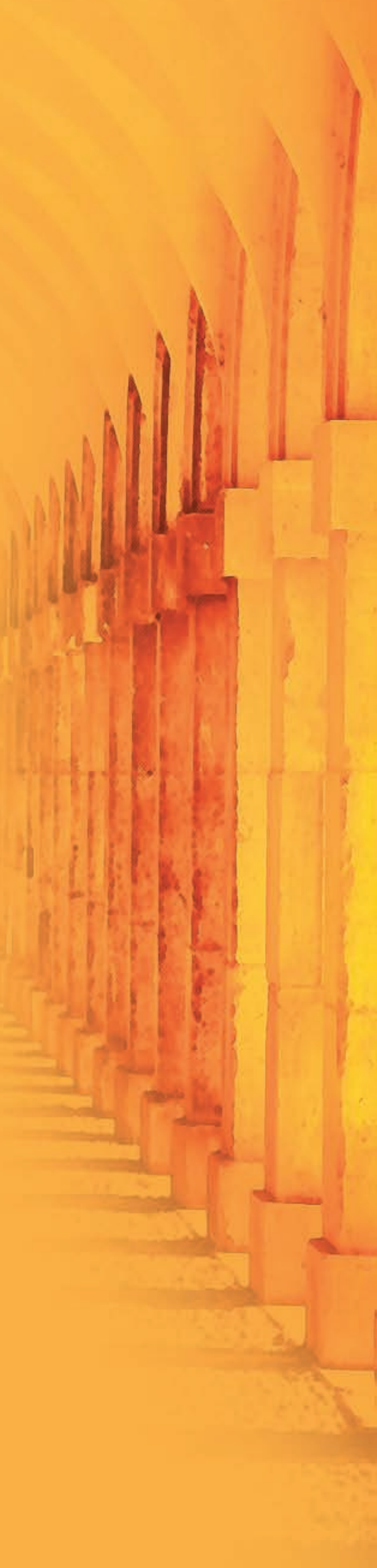
فمن قبة الصخرة في القدس والجامع الأموي في دمشق إلى جامع القيروان في تونس، وجامع ابـن طولـون في مصر، ومـن اختراع تقنية الخـزف ذي البريق المعدني إلـى آلاف القطع الخزفية الرائعـة والمنحوتات الخشـبية والعاجيـة والمعدنية إلى المخطوطات الحاويـة على نماذج بديعة من أنواع الخط العربي وعلى رسومات ملونة قيمة... نحن أمام حركة فنية مدهشة استمرت ألف عـام، ودلـت على ذوق فني رفيع منذ اللحظة الأولى التـي تنزل فيه الوحي على النبي ﷺ، خاصة وأننا وجدنا القرآن يتخذ من القصة -مثلاً- وسـيلة لإبلاغ الدعوة وترسـيخها ونشرها، يؤلف بين الغـرض الدينـي والغرض الفني، بحيث يتخذ من الجمـال الفني والتصوير التعبيري طرائق للتأثير النفسي والوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية.

فالفن والدين كلاهما عميق الغور في النفس والحس، ولا شك أن صفاء النفس مدعاة طبيعية لحسـن التلقي لمجالي الدين والفن. ولا ينبغي أن ننسـى فن الخط العربي المرتبط باللغة العربية المنـزل بهـا القـرآن الكريم. فقد أكدت الدراسـات الجادة على أثـر اللغة العربية فـي دفع عملية الارتقاء الفني للخط العربي، فاعتبره البعض "فن اللغة العربية"، من حيث إنها ظلت تعتبر الوعاء الواقي للشـرائع والقوانين السـماوية والدنيوية التي سنها الإسـلام. وتحتم على الدولة الإسلامية الفتية وعلى شعوبها، الاهتمام باللغة العربية اهتمامًا فائقًا، وذلك بنقلها من مستوى المشافهة إلى مسـتوى الكتابـة، بهدف حمايتها أولاً من محـاولات هيمنة اللغات الأخـرى، وتطويرها ثانيًا كي تتواءم مع التطورات الجغرافية والديموغرافية والسياسـية الجديدة، ولتثبيتها ثالثًا كلغة أمّ أساسية، كي تسـتطيع الاسـتمرار بالمهمة التي أنيطت بها، ألا وهي نشـر التعاليم الدينية الجديدة بين هذا الخليط الكبير من الشعوب والإثنيات والأديان والمذاهب... بالإضافة إلى اعتبار هذه اللغة وسيلة من وسائل توحيد المجتمعات الإسلامية الكثيرة التنوع الإثني والديني.

الحضور الجمالي للكلمة المقدسة

ومـن هنـا فقد أكـد الفنان المسـلم على أهمية الحضـور الجمالي للكلمة المقدسـة فـي الأمكنة المقدسـة، وأكـد على القيمة الجمالية المطلقة للأشـكال الهندسـية، وبشـكل خـاص على الخط العربي الذي يعد من أكثر هذه الأشـكال قداسـة لارتباطه المباشر بدلالتها اللغوية المقدسة. ومن هنا تحول الخط العربي إلى فن تشـكيلي له مقوماته الخاصة به، حيث يمكن أن تتم اللوحة كتابة وتكوينًا (شكلاً ومضمونًا) باستخدام الألوان المتعددة أو اللون الواحد بدرجاته أو اللونين (أبيض وأسود أو غيرهما)، كما يمكـن أن تكون الكتابة جزءًا من اللوحة التشكيلية، أو أن تكون الحروف في لوحة ما عناصر لا تتعلق بالمضمون، أي أن الحروف هنا، تكون أشكالاً وهياكل متممة للوحة فقط. وفي هذا المجال تعددت الأساليب التي تناولت الخط العربي في الفن التشكيلي.

وقديمًـا كان الخـط العربي مقتصرًا على تنويعات الخط والزخرفة -وذلك لأسـباب دينية- ثم بدأت تدخل الرسـوم المنمنمة التي تحتوي مخلوقات حية بشـرية في الكتب المختلفة على سبيل الشرح والتوضيح أو لوحات مرافقة للقصص والمقامات.



ولكـن الخـط ظل هو الأسـاس الذي أبدع فيه الفنانون العرب والمسـلمون، خاصة في مجال تزييـن القصور والمسـاجد وغيرها. وخلفت لنا العصور القديمـة آفاقًا من اللوحات الفنية القائمة على الكتابة والزخرفة العربية، كما حوت بطون الكتب أعدادًا كبيرة من لوحات الكتابة. فقد تفنن الخطاطـون فـي زخرفة وتذهيب الكتب خاصة نسـخ القرآن الكريم، مسـتخدمين الألوان بشـكل متناسق جميل.

وأبدع الفنانون القدماء لوحات تشكيلية معتمدة على الحروف والجمل العربية، بحيث تتضمن اللوحـة تشـكلاً مـا لحيوان أو طائر أو هيكل بشـري أو غيره، مؤلفًا من كلمـة واحدة أو جملة أو أسـماء أشـخاص، بتراتيـب متوازية أو غيـر متوازية. ولكنها تعطـي في النهاية تكوينًـا معيّنًا يظهر كلوحة تشـكيلية تامة... كما انتشـرت اللوحات المكتوبة بشـكل متناظر من الجانبين أو من أربعة جوانب، أي من اليمين واليسـار، أو من اليمين واليسـار والأعلى والأسـفل. وكانت تكتب على جـدران المسـاجد والقصـور وخاصة في عهود السـلاجقة والفاطميين والأيوبييـن وفي الأندلس والمغرب ثم في العصر العثماني.

الرؤى الإسلامية في الفن والجمال

هذا على مسـتوى ممارسـة الفنون في مختلف مجالاتها الإسلامية... أما إذا توجهنا وجهة فلسفية فلـن نجـد فـي الحقيقة كتابًا صادرًا عن مفكر مسـلم أو عربي يفرد للجمال موضوعًا مسـتقلا، أو يتحـدث عن علم الجمال وفلسـفة الفن، فيما عدا مـا أورده المقريزي في مخطوط لم يصل إلينا، موضوعـه "التزويـق وأخبار المزوقيـن"، وفيما عدا كتابات متفرقة عن "الخط" من حيث هو فن له أسسـه وجماليته وأسـاليبه، وعدا دراسات مستفيضة عن الشعر والموسـيقى... ومن خلال ذلك، قدم الكندي والفارابي وابن سينا رؤى جمالية فلسفية موزعة لابد من جهد لتجميعها واستقرائها.

أمـا الفكـر الصوفي الذي انطبع بطابـع الخيال الباطني، فلقد كان حدسـيًّا بذاته، وتحدث عن الجمـال الإلهـي، وأكثـر من حديثه عـن الجمال الموضوعـي... كذلك نرى مفهـوم الجمال عند الفارابـي وابن سـينا على أنه صفـة لوجود الموجود، وهو متعلق بالكمـال. ولذلك فهُما يتحدثان عن جمال إله وجمال المعقولات، وهو الجمال الحقيقي المطلق وليس النسبي.

أما أبو حيان التوحيدي الذي تكلم عن الصنائع في كتبه على لسـان كثير من معاصريـه، فقـد قدم لنا ما يمكن أن يسـمى بـ"فلسـفة الفن"، فأقـام قبل ألف عام، علمًا للجمال جديرًا في تأويل الإبداع الإسلامي وتعريفه.

وقد انبثقت بعض من النظريات الجمالية والفنية لكثير من المفكرين المسلمين مسـتلهمة روح الإسـلام وصادرة عن أصوله العقائدية والثقافية، ويمكننا أن نتبين كثيرًا من هذه النظريات عند مختلف المشتغلين بالفكر الإسلامي وعلومه، خاصة منها اللغة العربية.

وأختم بالإشارة إلى أن الفن الإسلامي يحتاج إلى رؤية فلسفية تكشف إطاراته، وتدفـع بـه إلـى أن يقوم بـدوره في الحضارة الإسـلامية كما قدر لـه أن يكون. ■

إن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو أشمل تصـور عرفتـه البشريـة حتى اليوم، لأنـه لا يأخذ جانبًا من الوجـود ويـدع جانبًـا آخر، وإنما يأخذ الوجود كله بمادياته وروحانياتـه ومعنوياته، وكل كائناته.

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

أديب إبراهيم الدباغ*

على حافات الانكسار الحضاري

عاشت أجيال العالمين العربي والإسلامي حقبًا متعددة من حقب القرون الثلاثة المنصرمة، خائفين مرعوبين مشفقين على حياتنا الدينية والثقافية والحضارية من أخطار الزحف الفكري والحضاري الغربي وهو يجتاح العالم ويمدُّ سلطانه على عقول الشعوب وأفكارها وثقافاتها وحتى أديانها.

ولئن كانت شرارات هذا الفكر قد أضاءت الكثير من عتمات عقولنا، ومسحت الكثير من جهالاتنا، غير أننا بقينا نؤوي بين تارة وأخرى إلى "القرآن" دماغنا المركزي، لنتغذى منه على قدر ما كانت معداتنا الذهنية آنذاك قادرة على هضمه منه.

أمَّا اليوم، فلم نعد نجد ما يبرر هذا الخوف والرعب من هذا الفكر على أصول أفكارنا وجذور معتقداتنا، لأن الكثير من عورات هذا الفكر، والكثير من نقائضه وأضداده، والكثير من الثغرات التي يمكن أنْ يؤتَى منها وترشحه للسقوط



والانهيار، بانَتْ عن نفسها، وتعرّت مـن أرديتها مـن خلال الفكـر النقدي الـذي اعتمـده هذا الفكر نفسـه منهجًا لتقويم بناه الفكرية والحضارية.

ولابد من الإشارة هنا، إلى أنَّ أعلام تراثنا الإسـلامي عرفوا النقد ومارسوه في كبرى القضايـا الفكرية والعقائدية، ولولا اشـتطاط بعضهم وذهابهم بعيدًا عن سـواء الصـراط المسـتقيم، لظلَّتْ مناهجهـم النقدية تعيش بيـن ظهرانينا حتى هذا اليوم.

ولا أحسـب أحـدًا يجـادل في أنَّ "الغزالـي" (٤٥٠-٥٠٥هـ) هـو أحـد أعلام المدرسة النقدية التي أرسى قواعدها الرصينة من خلال كتبه العقائدية، فاستطاع أن يجهز حتى الموت على المشتطين مـن الفلاسـفة والمعتزلـة والباطنييـن وغيرهم مـن المدارس والمذاهب التي لم تكن تحظى بالقبول من لدن الدين القويم.

فالقـرآن ظلَّ هـو "العقل المركـزي" الكبير الذي تسـتمدُّ أذهاننا منه الغذاء، ولا تنفك تعود إليه بين فترات مدِّها الفكري وجَزْرِهِ، وتسـتظل بظله من لهب الشوق إلى الروحانية العالية وظمأ الاحتراق بنيران هجره والبعاد عنه، وقد بقي صامدًا في الجانب الأسـمى من أفئدتنـا، ومحتفظًا بقدراتـه الفائقة على إسعافنا في أصعب الأوقات وحين نبدو وكأننا على شفا خطر ماحق سيودي بنا إلى هاويات الضياع والنسيان.

القرآن الكريم يظـل هـو "العقـل المركزي" الكبير الـذي تستمـدُّ أذهاننا منـه الغـذاء، ولا تنفـك تعود إليه بين فـترات مدِّها الفكري وجـزره، وتستظـل بظلـه من لهـب الشـوق إلى الروحانيـة العاليـة وظمـأ الاحـتراق بنـيران هجـره والبعـاد عنه.

فالزمن بكل أهواله أعجز من أن يغير شيئًا من عناصر هذا العقـل الأصيـل، أو يزيد عليه أو ينقـص منه، لأن الكون بكل طاقاته متجوهر فيه، ولأنه أزلي المأتى وأبدي المآل، حتى إنَّ روح الوجود سـرعان ما يسري في أوصالنا ونحن نقرأ فيه أو نسـتمع إليه، وكلما أضلّنا الفكر واشـتطَّ بنا النظر، مدَّ إلينا يد الهداية والرعاية والكلاءة.

وعلى الرغم من كوننا قادرين على الاسـتمداد من القرآن محـركات هائلـة للعقـول والأرواح تسـاعدنا على اسـتيعاب الجانب التنشيطي والتحفيزي من هذا الفكر، غير أن الكثيرين لا زالوا يرون في زحوفه خطرًا على العقول وبخاصة الفتية منها.

صحيـح أن لنـا -نحن المسـلمين- بعـض الخصوصيات التـي تحول بيننـا وبين الاندغام الكلي فـي الجانب الإيجابي لهـذا الفكـر، غيـر أن أخـصَّ طاقاتنـا المكونة لشـخصياتنا، هي -في الوقت نفسه- من أعمِّها انفتاحًا على الجوانب المشـرقة مـن أي اتجاهـات فكريـة وحضارية معاصرة.

فالشـخصية السـليمة والموزونة لا تجد ما يمنع من الاستجابة لكل ما هو صادق وعادل حيثمـا وجدته أو حيثما تـراءى لهـا، وعكـس ذلك يـدل على إيمان ضعيف وعقل فجّ لم ينضج بعدُ.

فمـن صفات التفرديّة في شـخصية المسـلم، سـعيه الكـدود لاسـتكناه الجوهرية الخالصة للأفكار والأشـياء، باعتبارهـا القمـة المعرفيـة التـي يسـعى الجميـع لاكتشـافها والارتقـاء إليهـا. فالقرآن بلمسـاته التحسسـيَّة المتتالية يبعث الحياة في الأرواح الثقيلة، ويمنح العقول أعينًا باصرة تخترق ظلمات الطبيعة والحياة، وتسمو حتى ترتقي العوالم والأكوان وكأنها تريد أن تقاسمها حياتها وعلو شأنها.

إن العالـم المزدحم بشتى صنوف الأفكار والمعتقدات، في زخـم رهيب إلى حد الاختنـاق... إن هذا العالم لم يعد يجد فـي الأيام الفارغة مـن أيّ مُزْدَحَمٍ فكري أو عَقَدي ما يؤهلها للقبـول في مجاميع أيامه ولياليه المملوءة بالخصب والعطاء.

إن دوار الرؤوس من أثر دق طبول الفراغ، هو من أخطر ما يمكن للإنسان المتعطل أن يواجهه في هذه الدنيا، وما يصدق مـن هـذا على الأفراد يصـدق كذلك على الشـعوب والأمم.

فالعقول السـامية والقوية تندفع بشـكل طبيعي، لملءِ هذا الفراغ والتسـلط بـكل قواها علـى العقول الضعيفة والبائسـة العَوَّامة فوق مسطحات الفراغ. فهذه القوة هي أهم ما تحتاجه الدنيـا فـي كل وقت وآن، إذ تتحول إلى رافد أفكار في جميع الأذهـان. وكم تكون الأمة -أية أمة- محظوظة إذا هي أوتيت فضيلـة النطق بالفكر الجليل لكل الأمم، لأن هذا الفكر قمين بـأن يأتـي النفوس الكبيـرة مـن كل أطرافها ليملأهـا بحوافز الإدراك وحصافة الاعتقاد.

فقماءة الشـعوب وضئالتها وانكسـار حضارتهـا، إنما هو سـقوط مريع لا ينبغي للأمم ذات السـلطان أن تسـمح به في هذا العالم الذي قد تقاربت أزمانه وأمكنته، واختلطت أفكاره



ومعتقداتـه حتى غدا كبيت واحد تتأثـر جدرانه بتصدع جدار واحـد منـه. وعلى هذه الأمـم أن تختار بيـن أن تكون عاملاً مـن عوامل الهدم والتخريب لضعفاء الشـعوب وبذلك تكون قـد ضربـت أول معـول في بنيان نفسـها، أو أن تكـون عامل بناء وإعمار للمهدومين وبذلك تسـاعد نفسها على بقاء بنيتها سالمة من السقوط والانهيار... ولن يكون هذا ما لم ترتقِ هذه الأمم إلى أخلاقية عالية مسـتوحاة من أخلاقيات الأديان التي ترى في الإنسان أخًا للإنسان، وترى البشرية كلها مختزلة فيه، وتراه مرآة ترى فيها نفسـها بضعفها وقوتها، وخيرها وشرها، وقبحهـا وجمالهـا... ولعل ثقافة الحوار الذي بدأ العالم يجد فيـه مخرجًا من أزماته الطاحنة، دليل من أدلة تنبه هذا الحس الأخلاقـي الـذي كان غائبًا عن ممارسـة أيِّ نشـاط في كبرى قضايا العالم... ولعل هذا الحس يعود من جديد ليأخذ مكانه فـي ضبط سـلوكيات الأمـم والأفـراد أقويائهـم وضعفائهم، وبهـذه الأخلاقيـة العاليـة يجمـل العالـم، وتزدهـر الفضيلة، وترتقي الإنسانية، وتصبح الحياة جديرة بأن تُعاش.

فالحياة بتدني مسـتويات الحـس الأخلاقي والديني -كما هـي عليه اليوم- أصعـب حياة يمكن أن تطاق، كما أن الكثير مـن الشـكوك بدأت تسـاورنا فـي قدرة البشـرية على إنشـاء حِسِّـها الأخلاقـي بما تملكـه من ملكات، من دون اسـتمداد هذه الأخلاقية من مصادر علوية ذات قدسية جلالية لتكنَّ لها الاحترام والتقديس ثم القبول والانصياع.

إن الفكـر الحضـاري الـذي يـرون فيـه الكفايـة عـن أية أخلاقيـة علوية، ما هـو إلا محض وهم. فهـذا الفكر مصاب بالإرهاق، ولـم يعد قادرًا على أن ينشئ منظومة أخلاقية ذات نفـوذ على النـاس -كل الناس- أفرادًا وجماعات... فأي فكر خـال من الإيحاء بضرورة العودة بثقافاتنا إلى الإيمان بوجود الله تعالى والتأكيد على الجوانب الروحية من الطبيعة البشرية، فهو فكر مدلس وسـيصير إلى الانكسار ثم السقوط والانهيار طال الزمن أو قصر. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

ماذا وَجد مَن فَقده جَلّ جَلالُه؟

كُلُّ حقّ دون معرفته وَهْمٌ وخِداع،
وكُلُّ وجهة غير وجهته سراب وضياع...
إنْ حُرِمْتَهُ، فقد حُرِمْتَ كُلَّ شيء،
وإن وَجدتَه، فقد وجَدْتَ كُلَّ شيء...
هَمٌّ ونَصَب، وبؤس وشقاء،
وغربةٌ وبِعاد، إنْ أنت جافَيتَه...
والإنسانية المسكينة،
من هذه الغربة تئنّ، وتبكي وتتوجَّع...
فيا لَهَوْلِ ما نرى... الكُلُّ تعِبٌ،
والكُلُّ يائِسٌ، والكُلُّ حائر...

* * *



أدب

هناء ذيبان*

محطات التفاؤل

أغرب ما في الحياة -دائمًا- أنها تسارع إلى فتح أبوابها كلما أُغلقت، وأنها تعاود الاحتفال بتطهرها من رموز التشاؤم كلما هاجموها وتسارعوا إلى غزوها. لا تتوقف الحياة عن إضاءة أنوار الأمل، ولا تغيب إجاباتها المدوّنة على صفحات الأيام لتلك الأسئلة التي ظل اليائسون يواصلون طرحها ولا يرتبكون في إشعال نكدها.

مَن اعتادوا على إغلاق أبواب الأمل واليأس من أن تُفتح ذات يوم، مفتونون دائمًا بالهموم، منتظرون للكوارث، عُشاق للعواصف، باحثون عن العذاب ومفردات التعذيب... لحظات نادرة وخارج السياق هي تلك التي من الممكن أن يتحرروا فيها، ويتدفق داخلهم بريق الأمل، لحظات نادرة تلك التي من الممكن أن لا يرتبكوا فيها وهم يشعرون أن هناك شيئًا جيدًا قد يكون في طريقه للقدوم.

لا يتجرؤون على تحدي الواقع المرير أو يحاولون كسر قاعدته. والاختباء تحت وشاح تلك الفرص المتاحة أو التي من الممكن أن تُتاح، دائمًا تأسرهم لحظة التناسي المطلقة بأن الورد يتفتّح ويزهر ويسعد ومن ثم يذبل، لكن تبقى تلك الرائحة الجميلة التي تحوّل اللحظة إلى متعة لا تزول.

ودائمًا تظل حدودهم لا تجاوز الحديث في كل لحظة عما تعرضوا له من مشاق وما عانوه في الماضي، وما يجري الآن ويخلق لديهم كل هذا الارتباك.

انغماس متكامل داخل دائرة اليأس، وداخل دائرة الحياة التي أحكمت إغلاق أبوابها عليهم بعذاباتها وتحدّيها المتواصل بأنهم غير قادرين على الاختصاص بما يريدونه، وينبغي أن يستمتعوا به.

لا يعني التفاؤل -مطلقًا- أن الحياة فقدت صعوبتها، وإنها قد تضيق كثيرًا بقدر ما اتسعت ومنحت الإحساس بالأمان، وأنها قد تغدر وتقودنا إلى عالم مجهول لا يمكن التخلص منه إلا بمسامرة الأمل، والتمسك بمفاتيح التفاؤل وعدم تبديدها، وأن الأخبار الموجعة قد توقف بثها، وأن الكوارث ستكون حكرًا على من لا يعنيك أو ترتبط به، وأنك لن تطرق مدن الحزن، ولن تتجرع ذلك الزمن المجزأ لك، والمُصرّ على أن تقيم فيه إقامة جبرية.

التفاؤل لا يعني أن تفكر أنك خارج المكان، وإن التفاعل معه ليس مجرد إحساس يمتلئ به داخلك ويقلق وجودك، ولا يعني أن تتعايش مع النفي الداخلي، وتجعل منه يأسًا متواصلاً مرتبطًا بذلك الفشل الذي حاصرك، ولا زلت تستسلم له أو تصر على أن الماضي عنصر سيظل حاضرًا مهما حاولتَ تفكيكه أو التخلص منه.

ليس هناك شك -مطلقًا- أن الحياة اليومية مبهجة على الدوام أو ليست صعبة ومكلِّفة للأعصاب. وليس هناك شك بأننا قد نعبر أروقة محبطة وكئيبة ومغلّفة بالكوارث، وليس هناك شك بأن أيامًا غادرت، وأخرى ستأتي محمّلة بنكدها وأوجاعها وتجاربها التي تذيب كل إحساس بالأمان، وتصنع خوفًا مقيمًا في العظام.. لكن مع كل ذلك هل ينبغي أن تكفر بالأمل؟ وهل ينبغي أن تتجاهل أن هناك لحظة فاصلة بينهما؟ وأن علينا أن نتفاءل بالخير لنجده. هل ينبغي أن نتجاهل أن التفاؤل يخلق نوعًا من التهذيب والالتقاء بالنفس والمقاربة مع الإمساك بمفاتيح الحياة؟ هل ينبغي أن نتجاهل الأمل وهو الوجه الآخر لصفحة الشقاء الذي يغمرنا في ظل تكاثر أوراق التشاؤم؟!

الحياة عامةً لا تخلص إلا لمن بحث عنها، وأخلص لآماله في داخلها، وآمن دائمًا أنها لا تظل على وتيرة واحدة، وأنها قابلة للتغيير. محطات التفاؤل عديدة، لكن هل بإمكانك الوصول إليها والحجز بسرعة أو التلكؤ بحجة أن الطريق مفعم بالعقبات، وأن المستقبل لن يختلف عن الماضي؟ تستطيع أن تصل إذا آمنتَ باستمرار الحياة، وراهنتَ على القادم، وتأكدتَ أن ما يجري سوف يتغير، وستظهر القيمة الحقيقية لما سيأتي ذات يوم. ■

(*) كاتبة وأديبة يمنية.

أ.د. حسن الأمراني*

اِرتقاء الأمم وتفوّقها منوط بارتقاء أفرادها، وارتقاء أفرادها منوط بعلوّ مناهج التثقيف الذهني والوجداني الذي يربط بين حرية الضمير والواقع المعيش.. فسعة الآفاق الفكرية مع سعة الآفاق الوجدانية، هاتان السعتان معًا تشكلان سلّم الارتقاء للأفراد والأمم.

* * *

ثقافة المحو

قال: يطوقني الحنين، ويسربلني الشوق.

قالت: أليس الله بكاف عبده؟ يا من تكفي عن كل أحد، ولا يكفي عنك أحد، أغننا بك عن كل أحد، ولا تشغلنا عنك بأي أحد. آمين.. حسبي الله وكفى.

قال: أحبك.

قالت: شغلت عن حب الخلق بحب الخالق.

الحب البشري يقيد ويأسر، والحب الإلهي يحرر ويرفع، فكيف للعاقل أن يؤثر السجن على الحرية؟

قال: تتقنين ثقافة المحو.

قالت: وما ثقافة المحو؟

قال: أليس الطريق إلى حب الله يمر عبر حب مخلوقاته؟

قالت: زدني...

قال: حدثني بعض تلاميذ النور عن الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، أنه جاءه رجل يسأله أن يكون مع السالكين، فقال الشيخ: أسَبق لك أن أحببت؟

ذهل السائل، فقد جاء يسأل الشيخ عن طريق النور، فإذا هو يسأله عن الحب. ولاحظ الشيخ ذهول السائل الشاب، فقال: هذا طريق لا يسير فيه غير العشاق.

وازدادت حيرة الفتى. فإذا بالشيخ يقول: لابد أن تكون قد أحببت.. أحببت شيئًا ما.. أيّ شيء..

امرأة.. وردة.. لحظةَ الشـروق أو الغـروب.. منظرًا ما.. فكرة ما.. أيّ شـيء.. ما لم تكتَوِ بنار الحب كيف ترتقي إلى درجة حب الخالق؟

كان عليه أن يسـلك به الطريق شـيئًا فشـيئًا حتى يفقه هذه الحقيقة.

قد نتعلق بشـيء ما.. نحبه.. ثم نسـعى إلى أن نرتقي بهذا الحـب.. وعلى قدر النفـوس تكون الهمم.. وعلى قدر الهمم يكـون المحبوب.. أليسـت الغاية هي حـب الله تعالى؟ فكيف تستطيع أن تصل إلى ذلك الحب دون مجاهدة؟ كل إنسان يولد ومعه فطرة الحب، ثم هو بعد ذلك يوجهها إلى الغاية التي يريد.. قد يكون الحب في بدايته هوى.. فإذا تعلق به الإنسان أرداه.. الهـوى يفضي بصاحبه إلـى الهاوية.. ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الفرقان:٤٣). الهوى يفنى ويتلاشى، والحب يبقى ويدوم.. وإلـى هـذا تنبه ولو من طـرف خفي، جميل بثينـة وهو يقول:

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها ويزيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبـًا ولا حبها فيما يبيد يبيد

فالهـوى يمـوت.. أما الحب فلا يبيـد.. ولكي يصل المرء إلـى هـذه الدرجة عليه أن يمارس ثقافـة المحو.. كيف يمحو ما تعلقت به نفسـه مما هو فان، ويلقي ببصره إلى ما هو باق؟ كيـف يرقـى من حب المخلوق إلى حـب الخالق؟ فإذا ارتقى اسـتطاع أن يفيـض مـن ذلك الحـب على مخلوقـات الله بما لا يتناقـض مـع الحـب العظيم، ويستشـعر عندهـا معنى قول الحبيب المصطفى ﷺ: "والذي نفسـي بيـده لن تدخلوا الجنة حتـى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابّوا، أفلا أدلكم على شـيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشـوا السـلام بينكم" (رواه مسلم). الحب والسـلام قرينـان.. وما الذي تحتاجه البشـرية فـي هذا العصر وفي كل عصر، هو أفضل وأمثل من الحب والسلام...

أنْ نمـارس ثقافـة المحو، معنـاه أن نتعالى على مشـاغلنا الصغيرة وشـهواتنا وملذات الحياة المحدودة، سـعيًا وراء لذة لا تفنى، وحب لا يبيد.. أحيانًا نحس بوحشـة الطريق فنحتاج إلـى مـن يرافقنا أو مـن يأخذ بيدنا إلى طريـق النور والحب.. قبـل أن نصـل إلـى درجة الارتقـاء التي تمكننا مـن أن نحس بحقيقة القائل: "لا وحشة مع الله".. كيف نستشعر تلك المعية ونحن في عزلة عن الناس أو وسط الناس!

ثم قال: ها أنذا أشـعر أنك أنت مرشـدي إلـى النور، وقد سبقتني إلى الطريق.. ما عليّ الآن، أن أتجرد من العقابيل التي كانت تثقلنـي، والأوزار التي كادت تقصم ظهري، وقد كانت الدنيا تزينها لي وتريني أنها الحب...

قالـت: صدق رسـول الله ﷺ: "الدنيا سـجن المؤمن" (رواه مسلم). مـا من سـبيل للحرية والتحـرر إلا بقطـع العلائق عن الخلائق، كما ذكر بعض من شاهد وعرف:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
إذا صح منك الودّ فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

عندئذ أرسـلت بصري إلى الأفق البعيد مسـتبصرًا متأملاً، وكأنني أستشرف من وراء الغيب صوتًا يهديني، ويَدًا ترشدني. كيف أوفق بين العزلة الروحية والمخالطة الجسدية؟ أليس من يخالـط الناس ويصبـر على أذاهم خيرًا ممـا لا يخالطهم ولا يصبـر علـى أذاهم؟ ولكـن كيف يحافظ المرء على نفسـه فلا تجرفه مخالطة الناس إلى ما هم فيه غارقون من أهواء؟ هنالك أدركت أن خيطًا رفيعًا تتمسك به يمكن أن يكون طوق نجاة. فالصـورة العليا من حب الخلـق المفضي إلى حب الحق هي حب الرسـول ﷺ. كما قال رسـول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لا يؤمـن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسـه وماله وولده والنـاس أجمعيـن" (رواه البخاري)، وفي الصحيـح أيضًا أن عمر ﷺ قال: يا رسـول الله، والله لأنت أحب إليَّ من كل شـيء إلا مـن نفسـي، فقال ﷺ: "لا يـا عمر حتى أكون أحـب إليك من نفسـك"، فقـال: يـا رسـول الله، والله لأنت أحب إلـيَّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال ﷺ: "الآن يا عمر". والصورة الدنيا من حب الخلق المفضي إلى حب الحق هي حب الخلق حبًّا أساسه حب الحق. ومصداق ذلك قوله ﷺ: "ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سـواهما، وأن يحـب المرء لا يحبـه إلا لله، وأن يكره أن يعود فـي الكفر بعـد أن أنقذه الله منه كما يكـره أن يقذف في النار" (رواه البخاري). فأحـب مـن شـئت، فإنك لن تبلـغ بذلك الحب درجـة الصفاء حتى يكون مرادك الله تعالى. فأحبوا الله من كل قلوبكـم توفقـوا إلـى أن تفيضوا على الخلق مـن الحب ما به يتحقق الأمن والخير والسلام. ■

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

تربية

د. محمد خروبات*





الطفولة
والإدمان الإلكتروني

هـل شـبكة الإنترنت ضرورية للطفل أم هي حاجية أو تحسـينية؟ وإذا تبين ضررها فبماذا نعوّضها؟ وكيف يمكننـا أن نكـوّن أجيـالاً لهـا صلة بعالـم المعرفـة؟ وإذا كانت الشـبكة محظورة على الأطفـال إلى حين يكبـرون، ففي أي سـن تتوقف عمليـة الطفولة؟ وهل يمكن للإنترنت أن يعـوّض دور الآباء والمربين في التعليم والتلقين والتربية والتوجيه؟ وإذا عُوِّضت هل يمكنها أن تمنحهم عنصر المحبة والعطف والحنان؟..

ويقابلك الأطفال بسـيل من الأسـئلة، التي تدل على أن معركة أخرى يعيشـها الأطفال مع أنفسـهم ومع آبائهم سببها الأول الإنترنت، يتسـاءلون عن هذه الحراسـة المشـددة في حقهم: لماذا؟ ولماذا يحرمون من التعامل مع شبكة الإنترنت ويتعاطاها الكبار؟ لماذا هذا الموقع حرام على الصغار، حلال على الكبار؟

تبدو هذه الأسئلة كلها مشروعة، ومثلما أن الكبار يكدّون ويجتهدون في تحصيل الأجوبة لإقناع أنفسهم، فعليهم في الوقت نفسـه إقناع أبنائهم بأجوبة معقولة وحقيقية، وفضاء البيت يمكنه أن يتسـع -على ضيقه- لندوة عائلية يشـارك فيها

بعـض المهتميـن، يكـون موضوعها "أطفـال البيت والأجهزة الإلكترونية الموجـودة فيـه، بمـا فيهـا الشـبكة العنكبوتية".

نظريات ونسبية الأحكام

تختلف النظريات حول طريقة تعامل الأطفال إلى ثلاثة اتجاهات:

الأول: يـرى أن تعامـل الأطفـال مع الشـبكة يجب أن يكـون مفتوحًا ولا يتقيـد في ذلك بسـنّ معيـن، لأنه لا وجـود لسـن قانونـي أو أخلاقـي أو دينـي يمنع الطفـل أو يحد من إقباله على الشبكة.

الثاني: يطالب بتحديد سـنّ معين لذلك، ووضع حد زمني صارم لتعامل الطفل مع الشبكة حتى لا يكون على حساب واجباته المدرسية، وعلى حساب صحته وتربيته. ويتم كل ذلك تحت مراقبة الآباء.

الثالـث: يذهب إلى حد منع الطفل مطلقًا من التعامل مع شـبكة الإنترنت، وهو توجُّه يمارس أسـلوبين كلاهما مـرٌّ؛ الأول يتمثل في إبعاد الطفل ومحاولة شـحن دماغه بسـلبيات الإنترنـت، والثانـي يتمثل فـي إبعـاد الإنترنت عنه، والمبرر في ذلك هو الأخذ بالقاعدة الأصولية "سـد الذريعة"، غير أنه إن استهدى إلى غلقها فيما لا ينفع، فإنه سدها فيما ينفع.

تقع بين أيدينا دراسـات علمية حـول هذا الموضوع، غير أن هذه العينات تنتمي إلى غير بيئتنا، فتطبق الدراسـة علـى أطفـال من بلجيـكا أو فرنسـا أو أمريـكا، ثم تؤخذ نتائجها ويزج بها في ثقافة عالمنا الإسـلامي. والواقع أن مثل هذه الأبحاث يسترشد بها، ويجب -في المقابل- أن نقيم دراسات علمية محلية تعنى بشؤون أطفالنا في العالم الإسـلامي، وهي وضعية مختلفة عن وضعيته في الغرب. ثم إن وضعية الطفل في جهة من العالم الإسلامي ليست نفسـها في جهـة أخرى؛ فالعينـات التي تختار للدراسـة، يجب أن تكون من المجتمع المراد تطبيق الدراسـة عليه، ثم يجب أن تمثل كل شرائح المجتمع.

شبكـة الإنترنـت جـزء مـن المعلوميـات الحديثـة التي يجب علـى الأبنـاء أن يلجوهـا، لأن الجهـل بها هو ضرب مـن الأمية التي يسمونها بـ"الأمية الرقمية"، لكن التعامل مـع الشبكة يجب أن يكـون مصحوبًـا بالمراقبـة من قبـل الآباء والمربيـن، مراقبة مصحوبة بالتعليم والتوجيه.

تبقـى نسـبية الأحكام فـي هذا الموضـوع مطروحـة، فحـالات الأطفـال مع الإنترنـت تختلف من طفـل لآخر، ومـن أسـرة لأخرى، لذلـك يتوجب النظر فـي كل حالة على حدة:

- هنـاك حـالات يؤثـر عليهـا الإنترنـت صحيًّـا وأخـرى لا يؤثر عليها.
- هنـاك حـالات تبـدو أكثـر نجاعـة وأكثـر اجتهـادًا ومردوديـة حيـن تتعامـل مـع الشـبكة، وهـي بخـلاف الحـالات التـي يزيدهـا التعامل تكاسلا وتقهقرًا.
- حالات يسبب لها الإنترنت مشكلا أخلاقيًّا وعائليًّا، وأخرى هي تحت السيطرة والتوجيه.

الإنترنت والتأثيرات سلبًا وإيجابًا

يمكـن الجـزم بـأن نظـرة مجمل الأطفـال إلـى الإنترنت إيجابية للأسباب الآتية:

- العالم كله أمامه من دون حدود ولا قيود.
- يحـاور أطفـالاً مـن مختلـف الأجنـاس والأعمـار ذكورًا وإناثًا.
- إرسال رسائل سريعة وتلقي أجوبة سريعة أيضًا.
- سيادة طابع التكتم والسرية في التعامل.
- السـماع إلـى كل اللغـات والأصـوات بمـا فيهـا الموسيقى والألحان.
- التسـلية بألعاب وأفلام وقصـص كثيرة من مختلف الأنواع.
- الاعتمـاد علـى الـذات فـي الإقبال علـى الإنترنت وعالمه.
- الاستعانة به في الدروس والفروض المنزلية.

هكـذا يرى الأطفال أن الإنترنت ضروري في حياتهم حتـى صرّح بعضهـم بأنهم لا يمكنهم العيـش بدونه. أما الكبار فلا يرون غضاضة من تلبية حاجات أولادهم، وإذا توجهتَ إليهم بالسـؤال عن دافعهم لإدخال الإنترنت إلى

البيت حصلت على ما يلي:

أ- إرضاء الأطفال ومجتمع البيت، فأمام الإلحاح والطلبات يسعى الآباء إلى الاقتناء.

ب- ولوج عالم المعرفة وهي فرصة يمنحها الإنترنت.

ج- طابع المنافسة الجارية بين الأسر والعوائل والجيران. والكلام عن الإنترنت أصبح يشكل ثقافة من النوع الضاغط.

وأثبتت الدراسات الاجتماعية أن الأطفال يتعاملون مع التكنولوجيا الحديثة أكثر من آبائهم، غير أن هناك من حرموا أبناءهم من الإنترنت وقد فعلوا ذلك تحت تخوفات كثيرة، منها أنه وسيلة حربٍ ابتكرها الغرب لتدمير المجتمع الإسلامي، أو أن استخدامه يأتي على حساب التحصيل الدراسي للطفل.

كل هذه تخوفات يجب أن تُعقْلن، وليس بالمنع وحده يمكن المحافظة على الطفل والبيت، المحافظة يجب أن تكون بالوقاية والمصاحبة والمراقبة والتوجيه والتربية، ثم بتحديد الداء المتولد عن التعامل مع الشبكة، وبحثه ودراسته بمعزل مثل: الإنترنت والجنس، الإنترنت والعنف، الإنترنت والإدمان وضياع الوقت، الإنترنت والتمرد على الآباء والأسرة والمجتمع... نحاول في هذا المقال أن نلقي الضوء على بعض القضايا:

١- حول قضية الإدمان: يكثر الطفل منذ المراحل الأولى في حياته من الجلوس أمام التلفاز لمشاهدة الرسوم المتحركة، فبقدر ما يدمن على مشاهدة التلفاز فهو يدمن على الإنترنت. وظاهرة الإدمان نفسها تشكل ظاهرة مرضية، وما هو في الواقع يفوق بكثير مما هو في الشبكة، فليست كل الألعاب ولا كل مظاهر الانحراف التي يشكو منها الآباء موجودة في الشبكة. ومن هنا فقبل أن نتساءل عن علاقة الطفل بالشبكة، نتساءل عن علاقته بالواقع أولاً، غير أن البعض لا يميل إلى هذا الطرح لأن المعوقات التي يفرضها الواقع على تحرك الطفل لا توجد في الشبكة.

يميل كثير من الباحثين إلى مناقشة قضية الإدمان من دون التعرض إلى أسبابه. والتعرض إلى الأسباب يتطلب استخلاصها مما يقدمه الأطفال أنفسهم حين نتوجه إليهم بالسؤال التالي: لماذا تدمن التعامل مع شبكة الإنترنت؟ ويقر الكثير منهم أنهم دفعوا إليه قهرًا، لأن الإنترنت -في غير الوقت الضروري- يعوض نواقص كثيرة، منها:

• الفراغ العاطفي؛ فالطفل لا يجد الأبوين بجانبه كثيرًا، فكأنهما عوضاه ذلك بشبكة الإنترنت والأجهزة الإلكترونية الحديثة.

• المشاكل الأسرية التي تحدث في وسط البيت، لا يملك الطفل إزاءها إلا الانزواء في عالم الشبكة لاعبًا ومتسليًا.

• المشاكل الصحية والنفسية؛ فكثير من الأطفال لا تسعفهم ظروفهم الصحية في الانخراط مع زملائهم في اللعب والجري في الهواء الطلق فيعوضون ذلك بعالم الإنترنت.

٢- الشبكة والوقت: لا شك أن التعامل مع شبكة الإنترنت يمتص الوقت كله، إلى درجة أن الإحساس بالوقت ينعدم لدى الطفل، فلا يدري متى انتهت الساعة الأولى ودخلت الثانية، بل لا يدري في بعض الأحيان متى انتهى النهار ودخل في الليل، وساعة حصة الرياضيات تصبح أثقل عليه من أربع ساعات أمام الإنترنت. ومع نسبية الزمان يذوب وقت الطفل ويموت تمامًا كما قتل الكبير وقته في لعب الشطرنج أو مجالسة أصدقائه في المقاهي.

٣- الإنترنت والمشاهد الإباحية: في الطفل حواس موجودة فيه بالفطرة، وتفعل فعلها فيه بسعيها نحو القيام بما لأجله وجدت، فالعين يجب أن ترى، والأذن يجب أن تسمع، واليد يجب أن تلمس، والرجل يجب أن تمشي وهكذا... فلا مجال للشك إذن، في أن وعي الأطفال يتشكل من المشاهد والرؤى والمسموعات والملموسات...

صحيح أن شبكة الإنترنت وإن كانت من ابتكار العقل الغربي، فإن الإقبال عليها متاح للجميع بكل المقاييس. لكن الملاحظ أن حضور إبداعات المسلمين فيه بالإنجاز والابتكار، ضعيف جدًّا أمام إنجازات العقل الغربي في مختلف الميادين. ومن هذا المنطلق، فإن الكثير من هذه الإنجازات لا يتلاءم مع وضعية الطفل المسلم ومع أخلاقه ومدخرات قيمه، مما يدفع البعض إلى توجيه أصابع الاتهام إلى الشبكة واعتبارها أداة تدمير لأذواق وأحاسيس ومشاعر الطفولة البريئة.

إن أخطر شيء؛ هو أن يترك الكبارُ الصغارَ يتوجهون بمفردهم إلى المسلسلات والأفلام التي توقع الطفل فريسة شهوات مدمرة مثل شهوة الجنس وشهوة العنف.

٤- الإنترنت والمعرفة: تؤكد مجمل الدراسات على إيجابية التعامل مع شبكة الإنترنت من الناحية المعرفية، لكن الأهم هو تحديد مفهوم المعرفة المراد جنيها والتي تخص الطفل.

توفر الشبكة كمية هائلة من المعلومات، وهذا وإن كان إيجابيًّا من وجه، فهو مزعج بالنسبة للاستعدادات العقلية للأطفال... فعقل الطفل لا يمكنه أن يستوعب هذا الكم الهائل من المعلومات. ومعلوم تربويًّا أن تحديد سنّ التمدرس مع انتقال الطفل من مستوى إلى آخر، هو بحسب القدرات العقلية والمعلومات التي تليق بذلك المستوى. لذلك مال بعض الباحثين إلى الكلام عن المراحل العمرية للطفل، حين يكون له استعداد للتعامل مع الشبكة ومع المعلومات المتدفقة، ثم هل يستقيم تعليميًّا وتربويًّا أن نجعل من معلومات الشبكة بديلاً للمعلومات العلمية والمعرفية التي يأخذها في المدرسة؟ أو أن يأخذ حريته كاملة في التعامل مع هاته وتلك؟

توفر الشبكة كمية هائلة من المعلومات، وعقل الطفل لا يمكنه أن يستوعب هذا الكم الهائل من المعلومات، ومعلوم تربويًّا أن تحديد سنّ التمدرس مع انتقال الطفل من مستوى إلى آخر، هو بحسب القدرات العقلية والمعلومات التي تليق بذلك المستوى.

أبعاد الهجمات على الأطفال

لا أحد ينكر أن هناك أبعادًا لهذه الهجمة الشرسة على أطفالنا في عالم اليوم، نحاول أن نحدد بعضها فيما يلي:

البعد الاقتصادي: فمجمل الأفلام والمسلسلات هي للتسويق والربح، لا يهمها المحتوى مما يشكل ضررًا على الأطفال. وقد انخرط الآباء في هذه المضاربة حين داوموا على إرضاء رغبات أولادهم دون النظر في أبعاد هذه الآفة.

البعد السياسي: حيث تسيطر نماذج فكرية معينة وشخصيات وطقوس، بها مضامين غير بريئة تضعف من شخصية الطفل وتراثه ودينه، ناهيك أن البعض منها لا يخفي عداوته للخصوصية الإسلامية.

البعد الحضاري والثقافي: حيث تطل الحضارة الغربية ببريق مدنيتها لتدغدغ أحلام طفولتنا البريئة، وتمارس ضربًا من التربية غير المباشرة للطفل وهو بين أحضان والديه.

البعد الديني: حيث تأخذ بعض الأفلام والألعاب والمسرحيات والقصص الموجهة للأطفال بُعدًا دينيًّا، فهي توجه الأطفال نحو المسيحية أو اللائكية، وحتى الإلحاد والزندقة.

وما ذكرناه في هذا البُعد، لا يهم طفلنا في العالم الإسلامي وحده، بل يهم كل أطفال العالم. فلابد من احترام خصوصية الطفل أينما كان.

التربية ودورها في مكافحة الظاهرة

حينما يثار الإشكال لا نحدد مَن المسؤول، إما أن نقول إنها مسؤولية الشبكة فهي وحدها تتحمل الوزر والتبعات، أو نقول إنها مسؤولية الطفل بفعل رغباته وارتباطه المدمن بالشبكة، والبعض يقول إنها مسؤولية الجميع دون أن يكون هو المبادر وهكذا... والواقع إنها قضية تربوية بالأساس.

ويحصر البعض التربية في الاعتناء بالطفل من جهة الأكل والشرب واللباس والتداوي والتمدرس ومجمل الحاجيات المادية فقط، لكن المفهوم الصحيح للتربية يبقى ناقصًا ما لم نأخذ بعين الاعتبار المحيط العام للطفل، ومنه الشارع والمدرسة وعالم الإنترنت.

التربية هي أساس التوجيه والتقويم والتهذيب والتكوين، وباختصار هي أساس "التنمية البشرية".

إذا كانت التربية بهذه المواصفات الإيجابية، كيف نساهم بها في حل هذه المعضلة؟

الكبار مكون أساس في المعادلة، والمبرر في ذلك ما يلي:

أ- الشبكة هي آلة، تستخدمها ما شئت وتتركها ما شئت، الإنسان هو الذي يتحكم فيها.

ب- الطفل هو إنسان صغير ليس مسؤولاً عن نفسه، إنه رهن التكوين والتشكل بفعل التربية. وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه".

من هذا المنطلق نحدد ما يجب القيام به تربويًّا لمعالجة هذه الظاهرة فيما يلي:

التربية بالقدوة: لا يميل كثير من الآباء إلى الاعتراف

بتقصيرهم تجاه الطفل -من هذا الجانب- حين يحمّلون الدولة أو الشارع أو المجتمع المسؤولية عن هذا الموضوع، وإذا كانت المسؤولية الأولى ترجع للآباء فهي ترجع إليهم من جهة الأسوة والقدوة. والسؤال المطروح هنا: كيف يتعامل الكبار مع الشبكة؟

مراعاة المقاصد والأهداف: يربى الطفل لأهداف ومقاصد معينة، من هنا فإن الإقبال على الإنترنت لا يجب أن يكون لمجرد الإقبال، إلا إذا كان دروسًا تطبيقية تلقن الطفل مبادئ التعامل مع الإنترنت، وهي خطوة أولى نحو توظيف شبكة الإنترنت في تنمية المدارك الروحية والتربوية والعلمية والمعرفية للطفل.

المراقبة العامة: مراقبة الأطفال جزء من العملية التربوية التي تقتضي متابعة الطفل زمانًا ومكانًا وموضوعًا، وهو ما يطلق عليه "التربية العامة".

نعني بـ"الزمان" متابعته في كل أطوار نموه، وعبر الأدوار التي يقطعها في حياته، لأن الانحراف لا سنّ له.

نعني بـ"المكان" متابعته في كل الأمكنة التي يسلكها، مثلما يجب توجيهه إلى المكان المناسب يجب تحذيره من المكان غير المناسب.

ونعني بـ"الموضوع" إثارة الموضوعات الضرورية في حياته ليهتم بها ويدركها، مثل المحافظة على علمه ودينه وصحته مع ضبط علاقته مع الله والإنسان والمحيط.

الحصانة الذاتية: التربية العامة من شأنها أن توصل إلى نوع مهم في التربية: الحصانة الذاتية.

صحيح أن مصاحبة الأطفال ومراقبتهم يجب أن تكون دائمة ومسترسلة، لكن هذا يتعذر على البعض؛ إذ لا يمكنهم مصاحبة أبنائهم أينما حلوا وارتحلوا، وهذا النوع من التربية يجعل الطفل يراقب نفسه بنفسه، ويسعى جاهدًا إلى مراقبة نفسه وتوجيهها، حتى إذا رأى شيئًا غير مُرْضٍ عرضه على آبائه ومربيه. فعلى الآباء والمربين أن يمارسوا أسلوب التصفية -لا الحرمان- فيحرمون الطفل من مشاهدة التلفزيون والسينما والمسرح أو شبكة الإنترنت، وهذا أسلوب مدمر لرغبات الطفل. فإذا خيف على الطفل من التعامل مع هذه الوسائل -وهو صغير- أصبح مدمنًا عليها وهو كبير، وقد ينحرف في كبر سنّه، فكأنه يحاول تعويض ما فاته في الصغر.

إن أسلوب التصفية والغربلة يكتسب عند الطفل بفعل التوجيه، وهذا يتطلب من المربي أن يشارك الطفل في تصفح المواقع ومشاهدة مواضيعها، حتى إذا كان فيها ما لا يسر أعرض عنه وأصدر حكمًا عليه، وهذا من شأنه أن يزرع في الطفل الثقة في النفس في الحكم على القضايا.

وبخصوص الأفلام الكارتونية التي يكثر أطفالنا من مشاهدتها، يجب بث الوعي لديهم على أنها ليست حقيقة، وكذلك السينما هي مجرد تصوير يتم بصنعة تقنية فائقة... حتى لا يختلط لديه الخيال بالواقع، وأن كل هذا -وإن تناول قضايا واقعية وعالج مسائل اجتماعية- فهو لأجل الترفيه فلا يأخذ منا كل الوقت والجهد. ثم يجب بث الوعي لديه أن وراء كل هذا أرباحًا اقتصادية مثل الإشهار. بهذا يكون الطفل حاكمًا على كل المشاهد عوض أن يكون كتلة مستلبة.

مقترحات وبدائل

شبكة الإنترنت جزء من المعلوميات الحديثة التي يجب على الأبناء أن يلجوها، لأن الجهل بها هو ضرب من الأمية؛ تلك التي يطلقون عليها "الأمية الرقمية"، لكن التعامل مع الشبكة يجب أن يكون مصحوبًا بالمراقبة من قبل الآباء والمربين، مراقبة مصحوبة بالتعليم والتوجيه.

المهمة التربوية بفعل المراقبة العلمية المستمرة تكسب الطفل حصانة ذاتية تمكنه من مراقبة نفسه بنفسه.

لا يكون التعامل مع الإنترنت بلا هدف ولا مقصد، يجب استخدامه فيما ينفع واستغلاله في الواجبات، أما الترفيه فخارج أوقات الدراسة.

رصد الحالات التي يؤثر فيها الإنترنت سلبًا على الأطفال، ومحاولة تجنبها أو التخفيف من آثارها.

إثارة الكلام فيها من قبل الآباء والمربين، وتخصيص ملتقيات وحوارات خاصة لمعالجة الموضوع مع استقدام خبراء واختصاصيين في الموضع.

إقامة دورات تكوينية ولقاءات لتوعية الأطفال حول طرق التعامل مع شبكة الإنترنت.

المشرفون على التوجيه والتعليم، يجب أن يكونوا على تكوين علمي وتقني وتربوي جيد ولا سيما في محلات "Cyber" التي يشرف عليها أناس غير مؤهلين للتربية والتوجيه. ■

(*) أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بـ"مراكش" / المغرب.

د. سعاد الناصر*



ذرات من عالم الحرية

إن الحرية في معناها الواسع، تدل على حق الإنسان الطبيعي في ممارسة إرادته والتعبير عن ذاته وقضاياه الخاصة والعامة بقناعة واختيار، وفق معايير محددة تخدم الفرد وتنظّم المجتمع وتسمو به. وهي ليست حدثًا طارئًا أو جديدًا في تاريخ البشرية، وإنما هي فطرة مغروسة في أعماق الإنسان فَطَره الله عليها، ولهذا تجدها تأخذ مساحات شاسعة من تفكير العقل البشري واهتماماته منذ القدم إلى اليوم، كلٌّ يسعى إلى هدفين اثنين لا ثالثَ لهما: تحريرُ حرية الإنسان في إطار تصورات معينة، أو تكريسُ عبوديته واستغلاله.

> **إن حريــة الرأي منضبطة باحــترام الآخرين، وعدم الاعتــداء عليهم أو مسّ مقدساتهم أو تسفيــه آرائهــم فــلا يتحــرك إلا بإرادتــه واختياره، وهــذا منتهى التعامــل الحضاري المنضبط بإنسانية الإنســان العاقل الأخلاقي الــذي يستحســن الخير والحــبَّ والجمال.**

لقد ظل مفهوم الحرية في الثقافات القديمة، والثقافة العربية قبل الإسـلام، محتفظًا بمعناه البسـيط الـذي يدل على الحالة المقابلـة للـرق، ولـم يطرأ عليـه أي تغيّر -تقريبًـا- حتى جاء الإسـلام بفكره التحرري الذي منح الإنسـان حريةَ الاختيار، سواء في نفسه أو فكره أو سلوكه. فاتسع مفهوم الحرية، وصار يحتوي على دلالة اجتماعية أوسـع من دلالته التي تعالَج في دائرة حقوق الأفراد، كما أن الحرية أصبحت موجَّهة بواجبات التكليف في إطار مسؤولية الإنسان عن اختياره: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧-٨).

الإلزام يتعارض مع حرية الاختيار

وهذا لا يعني الإلزام القسـري، لأن الإلزام يتعارض مع حرية الاختيـار التي أقرها الإسـلام فـي قوله تعالـى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)، وإنمـا يعنـي تحمّل الأمانـة بقناعة وإيمان من أجل تحقيق المسـؤولية، يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الإِنْسَـانُ إِنَّـهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). وقد فسـر ابن عباس الأمانة هنا بالفرائض، وفسـرها ابن كثير والزمخشـري بالطاعة، والفخر الـرازي بالتكليف. وهي معانٍ لا يمكـن تحقيقهـا والمحاسـبة عليها، إلا إذا اختار الإنسـان تأديتها بإرادة حرة مستقلة.

من هنا، ألا يمكن أن نسـتنتج أن الأمانة في الآية الكريمة هـي أمانـة الحريـة؟ وأن حريـة الإنسـان لـن تتأكـد وتتحقق صدقًـا وعدلاً إلا حين يدرك تكريم الله لـه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)؛ حيـث الضوابـط التـي تنظّم حيـاة الفرد في علاقته بالمجتمع والعالم بأسـره، وليست القيود التي تفرضها أخلاقيات الاسـتغلال والجشـع والخوف، ولا الفوضى التي تسـود نتيجة الأنانية وسيطرة حب الذات، وأنه لا حرية بدون



عقل فاعل يمارس التفكير والسؤال، ويتطلع نحو أُفق متجدد من المعارف والتصورات.

إن الحرية في الإسلام منظّمة تنظيمًا يتيح للإنسان امتلاك القدرة على التصرف والاختيار، وفق ضوابط شـرعية وقواعد عقلية، بحيث يسلّم ناصيته لله ﷻ وحده لا شريك له، فلا يتحكم شيء فيه مهما كان، أو تُمس مصالح الفرد والمجتمع أو تتعارض.

فالمسلم الذي يمتلك حريته حقًّا، لا يمكن أن تتحكم فيه شهوة من الشهوات، أو عادة من العادات، أو لحظة من لحظات الغضب والانفعال... فهو سيد شهواته وعاداته وكل لحظاته.

إن حريـة الرأي منضبطة باحترام الآخرين، وعدم الاعتداء عليهم بالقذف أو الغيبة أو النميمة أو مسّ مقدساتهم أو تسفيه آرائهـم، فلا يتحرك إلا بإرادته واختياره. وهذا منتهى التعامل الحضاري المنضبط بإنسـانية الإنسان العاقل الأخلاقي الذي يستحسـن الخيرَ والحبَّ والجمالَ، ويستقبح القبحَ والشرَّ في سلوكه وعلاقاته، ويستشعر قيمتها في وعيه ووجدانه.

وبذلك يكون ضمير الفرد ضميرًا اجتماعيًّا ملتزمًا بضوابط الحرية، وفق دافع داخلي نابع من شـخصيته وتكوينه الديني، وليس مما يفرضه عليه أي قانون، مستشـعرًا عبء مسـؤولية الأمانة باتصاله القوي بالله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُـمْ إِلَيْنَـا لاَ تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَـى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(المؤمنون:١١٥-١١٦). ■

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان/ المغرب.

قصة

مناف محمد صالح بعّاج*

الأمم التي لا تراجع نفسها بين الفينة والأخرى، ولا تنقد نفسها وتقوّم أخطاءها وتتثبت من سلوكها للطريق الصحيح، وما لم تستفد من عبر التاريخ وتجارب الأجيال السابقة، فإنّ هذه الأجيال ستتشعب بها الطرق وتختلف بها الاتجاهات وتضيع وتتشتّت، وهذا بالتالي يؤدي إلى تأخر الأمة ويمنع تقدمها ويعرقله.

* * *

الضمير

ليتَ شعري من أين جاءتنا هذه الجموعُ الغفيرة؟! قال قائد المدينة هذا الكلام وقد علَتْ وجهَه سحابة سوداء تخفي وراءها من الهموم ما تتهاوى الجبالُ تحت وطأتها. كانت مدينة هذا القائد مدينةً عظيمةً يتعايشُ أهلها فيما بينهم.. وكان لهذه المدينة طبيعة خلابة، فقد كانت الأشجار تغطّي مساحاتٍ كبيرة من أراضيها، وفيها أنواع وصنوف كثيرة من الأزهار التي تجتذب النحل إليها.. فكثُرَ العسل لدى أهل المدينة حتى صار مصدرَ رزقٍ لأبنائها، فما من رب أسرةٍ إلا وله عدد من المناحل التي تدرُّ الرزقَ عليه وعلى أسرته.

وقد اشتُهر عسلُ هذه المدينة بجودته، فصار أهل المدن الأخرى يقطعون إليها أشواطًا بعيدةً لشراء هذا العسل الفاخر.

كلُّ ذلك كان يدور في ذهن هذا القائد وهو ينظر إلى جموع العدو المخيّمة حول أسوار مدينته، والمحيطة بها كما يحيط السِّوار بالمعصم.

وقد شحَّت مؤنُ الجيش فخاف هذا القائد من أن تتضعضع هممُ الجنود أمام أعدائهم، فكان يبحث عن حلٍّ لهذه المعضلة قبل أن يفوت الأوان.

وبينما هو في غمرةِ أحزانه، لاحت له بارقةُ أملٍ من بين فُرَج الأحزان، فأشرق وجهُه لهذا الخاطر الذي ألَمَّ به، ولم يُضِعْ لحظةً من زمنٍ. فقد أمرَ رجالَه أن يَجمعوا له أهل المدينة في صعيدٍ واحد لكي يُخبرهم بخطته التي ارتآها، وما أسرعَ ما اجتمع أهل المدينة لكي يسمعوا هذا الرأي الذي سيطلُع عليهم به قائدُهم المخضرم...

فوقف القائد على تلةٍ صغيرة وقال لأهل مدينته:

- إنكم ترون ما قد ألمَّ بنا من إحاطة عدوّنا بمدينتنا، وإني قد رأيتُ رأيًا، فأخبروني هل أنتم مُطيعيَّ فيما سأقوله؟!

فقالوا بصوتٍ واحد:

- نعمْ يا سيدنا، فهاتِ ما عندك فكلُّنا آذانٌ مُصغية.

- إن جنود المدينة يبذلون ما بوسعهم في سبيل حماية ترابها من أنْ تدنِّسه نعالُ العدو، وإن مؤنهم قد كادت تفنى، فلا أقلَّ من أن نعطيهم ما يسدّ عَوَزَهم من طعام وسلاح.

فصاح الجميع صيحة واحدة:

- مُرْنا بما شئت فستجدنا من المطيعين.

- إنكم أيضًا بحاجة للمؤن، لأن مدينتنا محاصرة، وأنا لن أطلب من كل رب أسرةٍ أكثرَ من إناءٍ من العسل، فلا يوجد بيت في المدينة إلا وعنده من العسل الشيء الكثير، فإذا اجتمع لدينا كمية كافية، بعناها واشترينا بثمنها طعامًا وسلاحًا للجنود. وقد نصبْنا ها هنا خزَّانًا كبيرًا ليضع كلٌّ منكم العسل بنفسه دون رقيبٍ عليه. فإني واثق من أمانتكم يا أبناء مدينتي الغرَّاء...

وفي هذه الأثناء كان هناك رجل يقول في نفسه "ومَن الذي يراني إن وضعتُ مكانَ العسل ماءً... إن أولادي أحوجُ إلى ثمن هذا العسل من الجنود، ثم إن هذه الكمية القليلة من الماء لن تؤثِّر في هذا الخزّان الكبير المملوء عسلاً، إنه ليس إلا نقطة في بحر، ولذلك فلن أفرِّط بهذا العسل وأنا في هذه الحالة من الحاجة وحصار الأعداء".

وذهب هذا الرجل وتعمَّد أن يحمل إناءه قبل غروب الشمس بقليل، كي يراه الناس وهو يضع العسل، وفي الوقت ذاته كي لا يكتشف أحدٌ أمره... إذ إن الظلام بدأ ينزل فيلفُّ الكونَ بعباءته السوداء، ثم إن هذا الرجل حريصٌ على سمعته بين الناس، فكيف يفرّط بهذا الشيء العظيم؟!

وسكب هذا الرجل الماء في الخزّان الكبير وعاد إلى بيته فرحًا، لأنه حقق أكثر من غايةٍ في نفسه؛ فقد رآه كثيرٌ من أهل مدينته وهو يؤدي واجبه الوطني، كما أنه لم يخسر شيئًا من العسل.

ومضت عدة أيام على هذا الأمر، وكان قائد المدينة قد اتفق مع جماعةٍ من خارج المدينة كي يُوصلوا له كمية العسل هذه إلى برّ الأمان؛ لتؤخذ إلى المدن الأخرى ويشترى بثمنها الأسلحة والمؤن اللازمة.

وكان كل شيء مرتَّبًا له.. فقد بعث هذا القائد رسُله إلى من سيشتري هذا العسل منهم.

وجاء اليوم الموعود، ولم يعرف هذا القائد كيف مضى هذا اليوم، لأن الموعد مع تلك الجماعة كان بعد منتصف الليل.

وكان القائد يحاول أن يسابق الزمن تحسُّبًا من هجمةٍ قد أعدَّ لها جيش الأعداء كما بلَّغه جنودُه.

وحضرت تلك الجماعة، فأراد زعيمُهم التأكد من كمية العسل ونوعه، فطلب من القائد أن يفتح لهم غطاء ذلك الخزّان، فقال لهم "على الرّحب والسّعة، فأنا موقنٌ أن عسل مدينتنا سينال حظوةً لديكم"... اقترب القائد من خزّان العسل برفقة زعيم الجماعة... ولكنه حين فتح غطاء الخزّان وقف مشدوهًا ولم ينبِسْ ببنت شفة، شرد عن العالم الخارجي وغرق في شرود... ولكنه استيقظ على صوت جنوده... يا سيدي... يا سيدي ماذا دهاك؟! فظل صامتًا دون حراك. فاقترب عددٌ من الجنود ومن رجال تلك الجماعة إلى فم الخزّان فلم يكن حالهم بأحسن من حال القائد... فقد كان الخزّان مملوءًا ماءً.

وإذا بشعورِ ذلك الرجل الذي وضع ماءً بدل العسل كان سائدًا لدى سكان المدينة كلهم... فقد ألقى كل واحدٍ منهم المسؤوليةَ عن عاتقه اتكالاً على حَمْل الآخرين لها، ولكنْ لم يحمل أحدٌ منهم تلك الأمانة فأفلتتْ من يدهم جميعًا.

ولم يمض أيامٌ على تلك الليلة حتى شدد العدو حصاره على المدينة، ولم يكنْ لدى الجنود ما يكفيهم لصد هجماته... وتداعتْ أسوار المدينة أمام ضربات العدو، وسقطت بعد مقاومةٍ يسيرة... فدخلها العدو ولم يترك فيها حجرًا فوق حجر.

وتراكمتْ الجثث في شوارع المدينة، وكانت جثة ذلك الرجل بين تلك الجثث وهو متأبطٌ بيده قطعةً من إنائه المحطم تحت سنابك الخيل.

وانطوتْ صفحة من صفحات التاريخ عز فيها أناس أخلصوا لمبدئهم، وذلَّ أناس تخلَّوا عن أقل ما يطلبه منهم الواجبُ والعدل والحق. ■

(*) كاتب وأديب سوري.

أ.د. علي جمعة*

هدْيُ النبي ﷺ

في التعايش مع الآخر

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

لقد ترك لنا رسول الله ﷺ أربعة نماذج للتعايش مع الآخر داخل الدولة وخارجها. أحدها هو النموذج الذي كان في مكة المكرمة وكان المقام فيها هو مقام "الصبر والتعايش". والنموذج الثاني هو نموذج بقاء المسلمين في الحبشة وكان المقام فيها مقام "الوفاء والمشاركة". والنموذج الثالث هو نموذج المدينة في عهدها الأول وكان المقام فيها هو مقام "الانفتاح والتعاون". والنموذج الرابع كان في المدنية في عهدها الأخير وكان المقام فيها هو مقام "العدل" و"الوعي قبل السعي".

لا يخرج بقاء المسلم في مجتمعه عن هذه الصور الأربعة. وينبغي علينا أن نستفيد استفادة تامة من كل هذه النماذج باعتبار أنها التصور الذي ارتضاه الله ﷻ كتطبيق معصوم لمراده في هذه الأرض. يجب علينا أن نعي حقائق هذه النماذج وأنها صالحة للاستفادة منها للمسلم

بحسب حاله ومقامه، وأن نفهم سنة سيدنا رسول الله ﷺ من خلال سيرته ومواقفه.

وكما أخرج ابن حبان في صحيحه عن سيدنا ﷺ قال: "من حكمة آل داود أن يكون المؤمن مدركًا لشأنه عالمًا بزمانه".

في مكة كانت حكومتها والمتصرفون فيها من المشركين، وكان المسلمون قلة وكان الشعب يكره الإسلام والمسلمين ويوقعونهم في الأذى..

وكانت الحكومة في الحبشة غير مسلمة، إلا أنها عادلة لا يُظلم عندها أحد، تحترم المسلمين وتقيمهم فيما بينهم حتى إنهم شعروا بالمواطنة.

وفي المدينة في العهد الأول كانت الحكومة مسلمة، ولكن الشعب متعدد الطوائف؛ منهم اليهود ومنهم المشركون والوثنيون والمنافقون، ومنهم المسلمون.

وفي المدينة في عهدها الأخير، قلّ هذا التنوع فلم يبق أحد من المشركين، ولكن بقي كثير من اليهود كما تفيد بذلك النصوص الصحيحة.

نموذج مكة: الصبر والتعايش

يصف سيدنا جعفر بن أبي طالب ﷺ ما كانت عليه مكة وهو يخطب أمام النجاشي فيقول: أيها الملك، كنَّا قومًا أهلَ جاهلية، نعبد الأصنامَ، ونأكل الميْتةَ، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحامَ، ونُسيء الجِوارَ، يأكل القويُّ منّا الضعيفَ... (رواه أحمد)

نريد أن نتأمل حياة رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها مع هذا الجو الكئيب من فعل المعصية، كيف كان يتعامل معها ﷺ؟ كان متعايشًا مع هؤلاء القوم على ما هم فيه من سوء، ولا يزال يقوم بواجباته الاجتماعية -إن صح التعبير- في وسط هؤلاء.

وتبيّن ذلك ما تصفه به السيدة خديجة أُمُّ المؤمنين رضي الله عنها إذ تقول: كلا أبشِرْ، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لَتصلُ الرحم، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحمِل الكَلَّ، وتَكسِبُ المعدومَ، وتَقْري الضيفَ، وتعين على نوائبِ الحقّ (رواه البخاري).

ويتحالف النبي ﷺ مع قبائل من قريش، تعاهدوا على نصرة المظلوم قبل البعثة؛ فقد تداعت قبائل من قريش إلى حِلفٍ فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جُدْعان لِشرفه وسِنّه وكان حِلْفهم عنده بنو هاشم، وبنو المطلب، وأَسَدُ بن عبد العُزّى، وزهرةُ بن كِلاب، وتَيْمُ بن مرّة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظَلَمه حتى تُردّ عليه مظلِمتُه.

فسمّتْ قريش ذلك الحلف: "حلف الفضول".

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يقول: "لقد شهِدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حلْفًا ما أحِبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعم، ولو أُدْعى به في الإسلام لأَجَبْتُ"، وكان يتمسك عليه الصلاة والسلام بهذا الحلف بعد البعثة ويلجأ إليه وكان يعمل بمقتضاه حتى بعد ما عادته قريش وضيّقت عليه.

المقصود أنه يجب علينا أن نكون كرسول الله ﷺ إن أحاط بنا ما أحاط به في مكة من الصبر والتعايش.. وأحاديث كثيرة تؤكد ذلك: "إذا رأيت هوىً متَّبعًا، ودنيا مؤْثَرةً، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، وشُحًّا مُطاعًا، فعليك بخاصة نفسك ودعْ عنك أمر العامة" (رواه البخاري)... يتعايش ويصبر ولا يترك المبادئ، لأن الوسط الذي حوله ليس ملائمًا، بل هو وسط ظالم وسط منحرف.

روايات كثيرة نجدها في عيون الأثر لابن سيد الناس وغيره عن قصة أبي جهل، الذي اشترى من شخص أجمالاً ثم بعد ذلك لم يسدد له، وذهب إلى قريش فجلست تتضاحكَ، ونصره رسول الله ﷺ.

إذا ما قرأنا هذه السيرة العطرة وجدناه ﷺ يساعد أبا طالب ويأخذ عليًّا ﷺ ليربيه في بيته.

ونرى أن الذين رفضوا التعايش، وجلسوا في عذاب المسلمين كانوا هم المشركون. ظل رسول الله ﷺ يصلي في الكعبة وفيها أكثر من ثلاثمائة وستين صنمًا، لم يحاول أن يهدم صنمًا واحدًا منها بالرغم من أنها ضد التوحيد الخالص الذي جاء به... كيف كان يسجد رسول الله ﷺ في صلاته؟ علينا أن نتعمق وأن تتداعى أفكارنا في رسم صورة رسول الله ﷺ في مكة؛ كيف كانت تصرفاته، وأن نستنبط من كل نص شيئًا يُعينُ المسلمَ الذي قُدِّر له أن يعيش في مجتمع يكره الإسلام والمسلمين، حيث ظلت هذه الأصنام إلى عام الفتح في العام الثاني للهجرة.

نموذج الحبشة: الوفاء والمشاركة

في النموذج الثاني في مجتمع الحبشة، وهي التي قال فيها رسول الله ﷺ بعدما رأى الأذى يحيط بأصحابه ﷺ: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا عظيمًا لا يُظلم عنده أحد" (رواه البيهقي). وكان أول من خرج عثمان بن عفان ﷺ مع زوجه رقية بنت سيدنا رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب وغيرهم كثير

رضـوان الله عليهـم أجمعيـن... فيقول لهـم ﷺ: "حتـى يجعـل الله لكـم فرجًـا ومخرجًـا ممـا أنتـم فيـه" (رواه البيهقـي).

وكلمـة جعفـر بـن أبـي طالـب ﷺ إلـى النجاشـي، كلمة بليغـة تحتاج إلى درس طويل تحتاج إلى أن نسـتنبط منها أحكامًا تفيد المسلم في هذه البلاد، التي تكون فيهـا الحكومات لا تعترض على الإسلام، وتسـاعد المسـلمين وترضى بهم كمواطنيـن... كيف يعملون وكيف يتعاملون؟ ما مفهوم المواطنة؟ حتى في العصـر الحديـث... كل ذلك يمكن أن يؤخذ من تجربة الحبشة.

علينـا أن ندرس سيرة رسـول الله ﷺ مـع سنتـه في نسق واحد، ونحـاول أن نستخـرج منهـا مكونـات الشخصيـة المسلمـة سـواء مـن الناحيـة العقليـة أو النفسيـة، أو مـن ناحيـة المناهـج التـي يلتزمها في تقويمـه للمواقع، وإنشائه للعلاقـات مع الآخرين، حتى يحقق التكليـف والتشريف في مقـام الشهـادة علـى العالمين.

ابـن عم النجاشـي ينازعـه المُلْكَ..

فتقـول أمّ سـلمة أمّ المؤمنيـن فيمـا بعدُ عليها السـلام: فوالله مـا علِمْتُنا حَزِنّا حُزْنًا قطُّ كان أشـدَّ علينا من حُزْنٍ حَزِنّاهُ عند ذلـك... وفـي رواية أنهـم عرضـوا أن يحاربوا معـه فرفَض. فترصدوا المعركـة.. فلما انتصر قالت: فوالله ما علِمْتُنا فرحنا فرحـة قط مثلهـا.. ولما هاجـر النبي ﷺ إلى المدينـة المنورة وكـوّن الدولة، آثـر كثير من الصحابة البقاء في الحبشـة. فإنه لما التجأ المهاجرون الأولون إلى الحبشة، فأكرمهم النجاشي بقوا هنالك آمنين من اضطهاد قريش. ولما هاجر رسـول الله ﷺ إلـى المدينة المنورة، عاد أربعون من المهاجرين والتحقوا به بالمدينة المنورة، وبقي منهم في الحبشـة نحو خمسـين أو ستين تحت حماية النجاشي. وتزوج رسول الله أم حبيبة عليها السـلام، تزوجهـا وهـي بأرض الحبشـة، وكان قـد خطبها له النجاشي. فلما خلّف النجاشي ولدًا أسماه عبد الله، وأرضعته أسـماء بنـت عميـس امـرأة جعفـر مـع ابنهـا عبـد الله، فكانا يتواصـلان بتلك الأُخوَّة. ويقول السـهيلي أيضًـا: ومن رواية يونس عن ابن إسـحاق، أن أبا نيزر مولى علي بن أبي طالب ﷺ كان ابنًا للنجاشـي نفسـه، وأن عليًّا وجده عند تاجر بمكة فاشـتراه منه وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين. كلام كثير في النموذج الثاني؟

ويروي البادوري في أنساب الأشراف، أن الزبير بن العوام ﷺ هاجر إلى الحبشـة في المرتين، وقاتل مع النجاشـي عدوًّا له؛ يعني مرة رفَضَ ومرةً قاتلوا معه.

نمـوذج المدينة فـي المرحلة الأولى: الانفتاح والتعاون

ولو ذهبنا إلى المدينة المنورة، لوجدناها تكوَّن من اليهود والمشركين والمنافقين والمسـلمين، وفـي كل مجموعـة مـن المجموعات أحكام فقهية لا تتناهى إذا مـا قرأنا السـيرة مع السـنة. أخُصُّ منها شـيئًا لطيفًا، وهـو أن النبي ﷺ لما حكَّم سـعد بـن معاذ فـي اليهـود... فإنه نظام قضائي لم تصل البشـرية إليـه في يومنا الحالـي وهـو أن يختار المتّهَـمُ قاضيه. وعلينـا أن نـدرك أن هـذا كان حكمًـا قضائيًّا لجريمة الخيانة العظمى.

ولا يمكـن أن يصنّـف لإبادة المجموعات ولا لإبادة الشـعوب، بل هو تم بناء على النظام القانون الشرعي والاتفاقات المتفق عليها كما هو في صحيفة المدينة. والجديد أنْ يختار المتّهَمُ نفسُه قاضيَه.

من هذه في هذا الجانب، نرى كيف كانت مسـألة السـلام على أهل الذمة واختلاف العلماء فيها، وكان سفيان بن عيينة والأوزاعـي وغيرهـم يحيزون السـلام، لأن هذا كان لسـبب وكان لغـرض دَرْءِ الفتنـة، حيـث إنهم كانوا يمـرّون فيقولون "السام عليكم"، أي الهلاك عليكم، وستحدث فتنة.

ومـع المنافقيـن يكفـي أن الله ﷻ أبـاح له قتـل المنافقين فلـم يقتل واحدًا أبدًا، بل قـال: "لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابَه" (رواه البخاري). في سورة الأحزاب: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُـونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ۞ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُـوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾(الأحزاب:٦٠-٦١). وبالرغم من ذلك لم يقتل أحدًا أبدًا.

فهنـاك فرق بين الجـواز وبين التنفيذ، وبيـن المباح وبين المتـاح. وهذا درس نتعلمه من سـيدنا ﷺ. ليس صحيحًا أبدًا أن الإسـلام أو المسـلمين يعترفـون أو يقرون بمسـألة تطهير الأرض وتوحيـد الدين وإكراه الناس على الدخول في دينهم أو الرحيـل مـن أرضهـم... لم يحدث هذا أبـدًا، لا في عصر النبي ﷺ ولا في تاريخ الإسلام النظيف.

نمـوذج المدينة فـي عهدها الأخير: العدل والوعي قبل السعي

النمـوذج الرابع هو المدينـة في عهدها الأخير، يبيـن ذلك حديث في البخاري أن النبـي ﷺ "توفـي ودِرْعُه مَرْهونةٌ عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير".

استـب رجل من المسـلمين ورجل مـن اليهـود، فقـال المسـلم: والـذي اصطفـى محمـدًا علـى العالميـن -فـي قسَـم يقسـم بـه- فقال اليهودي: والذي اصطفـى موسـى علـى العالميـن، فرفـع المسـلم يـده عنـد ذلـك فلطـم اليهـوديَّ، فذهب اليهوديُّ إلى رسـول الله ﷺ فأخبـره بالـذي كان مـن أمـره وأمـر المسـلم. فقـال النبـي ﷺ: "لا تخيّرونـي على موسـى، فـإن النـاس يصعقـون يـوم القيامـة، فأكـون أول مـن يفيـق، فـإذا موسـى باطـش بجانـب العـرش، فـلا أدري أكان فيمن صعـق فأفـاق قبلـي أو كان ممـن اسـتثنى الله" (رواه البخـاري).

حدث بين طعمة بن عمير من المسـلمين وزيد بن سـمين من اليهود مشكلة وكان الظالم فيها المسلم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَـادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَـهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾(النساء:١٠٧)، وهنا عدل النبي في صفّ اليهود ضد المسلم، لأن العدل أساس الملك، ولأنه يريد أن يخرجنا مـن الظلمات إلـى النور: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُـوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائـدة:٨). علّمنا المبادئ، وعلّمنـا الأخلاق، وعلّمنا ما لو اطلع عليه العالمون لآمنوا به عليه الصلاة والسلام.

كان رسـول الله ﷺ صبـورًا علّمنـا الصبـر، وعلّمنـا كيف نتعامل مع الناس برفق، وألا نظهر فيهم آراءنا.

فكان النبي ﷺ يتعايش حتى مع أشـر الناس.. فعن عائشـة أمّ المؤمنيـن رضـي الله عنهـا أن رجلاً اسـتأذن على النبي ﷺ فلمـا رآه قال: "بئس أخو العشـيرة وبئس ابن العشـيرة"، فلما جلـس تطلَّـقَ النبـيُّ ﷺ فـي وجهه وانبسـط إليه، فلمـا انطلق الرجلُ قالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله حين رأيتَ الرجـلَ قلـتَ له كـذا وكذا ثم تطلَّقْـتَ في وجهه وانبسـطْتَ إليه، فقال رسـول الله ﷺ: "يا عائشـة متى عهدْتني فحَّاشًـا، إن شـر النـاس عنـد الله منزلـة يـوم القيامة من ترَكَهُ الناسُ اتِّقاءَ شـره". (رواه البخاري)

علينـا أن نتعمـق وأن تتداعـى أفكارنا في رسم صورة رسول الله ﷺ في مكـة؛ كيـف كانت تصرفاتـه، وأن نستنبط من كل نص شيئًـا يعين المسلـم الذي قُدِّر له أن يعيش في مجتمع يكره الإسلام والمسلمـين، إذ ظلت الأصنام داخـل الكعبة إلى عام الفتح في العام الثاني للهجرة.

أما ما حدث في حديبية، وما نحتاجه مـن وضـع مـن أسـس للمفاوضـات والخطـط الإسـتراتيجية، وما حدث مع الوفـود التي أتـت من كل مكان... حتى إنّـا سـمعنا أن وفـدًا من المجـر -وهذا ليـس فـي كتبنـا وإنمـا فـي واقعهم من هونغريا- جاءوا فأسـلموا وكان عددهم مائـة، وهـم أصل المسـلمين في المجر إلـى اليوم. وحتى سـمعنا فـي المصادر الصينيـة أن وفـدًا مـن الصيـن أتـى وأن بعضهم رسـم النبيَّ ﷺ خلسـة، وأن هذا موجود في المصادر الصينية إلى الآن. كيف تعامل رسول الله ﷺ مـع كل هـؤلاء الوفـود، كما أن هناك عاما فتحت المسـاء حتى سمي بعام الوفود..

هـذه المعامـلات؛ الحديبـة، والوفود، ورسـائل النبي ﷺ للخارج، يمكن أن يؤسَّس بها علم بحاله لما اشتمل كل لفظ منهـا على القواعد والمبـادئ والمناهج التي يمكن أن نحييها في عصرنا وأن نطبقها في واقعنا.

يجـب علينا أن ندرس سـيرة رسـول الله ﷺ مع سـنته في نسـق واحـد، ونحاول أن نسـتخرج منها مكونات الشـخصية المسـلمة سـواء من الناحيـة العقلية أو النفسـية، أو من ناحية المناهج التي يلتزمها في تقويمه للمواقع، وإنشـائه للعلاقات مـع الآخريـن، وفهمـه للأمـور، ومواجهتـه للعالميـن عيشًـا ومشـاركة وتفاهمًا وتعاونًا وعبادة لله وعمارة للأرض وتزكية للنفـس، حتى يكـون قد اتخذ النبيَّ ﷺ أسـوةً حسـنة، وحتى يحقـق التكليف والتشـريف في مقام الشـهادة على العالمين: ﴿وَكَذَلِـكَ جَعَلْنَاكُـمْ أُمَّـةً وَسَـطًا لِتَكُونُوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). ■

(*) مفتي الديار المصرية. والمقال تم تفريغه من محاضرة ألقاها فضيلة المفتي في مؤتمر "هدْيُ خير العباد" المنعقد في إسطنبول في تاريخ ٩-١٠ أكتوبر ٢٠١٠ من قبل مجلة حراء.

دراسات إسلامية

أ.د. الشاهد البوشيخي*



القول البليغ والأدب الأسمى

إن الأدب ببساطة هو "قول بليغ"، وكلمة "بليغ" هي لفظة قديمة، كما أنها -في اعتقادي- أقوى من كلمة "فَنّ" ومن كلمة "جميل"؛ فقد أقول "قولاً جميلاً" أو "فنيًّا"، ولكنه لا يؤدي الوظيفة التي تؤديها لفظة "بليغ".

فالأدب "قول"، وكونه قولاً واضحًا يُخرج ما سوى القول مُدخِلاً كل قول، لكن صفة "بليغ" تُخرج ما ليس بأدب، أي تمنع كل قول لم يصل إلى الحد الذي يكون به بالغًا إلى ما يريد، مبلغًا ما يريد، أي أنه حامل لرسالة، وهذه الرسالة بلغت حدًّا من البيان و التجلي، ومن الجمال والفنية إلى الدرجة التي تنقل بها المراد نقلاً مؤثرًا غايةَ التأثير، يبلغ أعماق النفوس ويحدث فيها الأثر البالغ. وإن هذا اللفظ بهذا المعنى هو الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾(النساء:٦٣)، فهو من البلاغة ولكنه ليس هي، لأن البلاغة في هذا القول البليغ في الآية تتجه إلى معنى بعينه، يؤثر في النفوس تأثيرًا خاصًّا لا بهذا المعنى العام، فبين هذا وذاك خصوصٌ وعموم. إذن فـ"القول البليغ" يدخل فيه كل الأدب بجميع أجناسه.

ما هو القرآن؟

كل أدب هو "قَولٌ بليغٌ"، أما القرآن فهو "القول البليغ". والقرآن وصف نفسه في آيات بأنه "قَوْلٌ"، و"قَولٌ بَلِيغ"، و﴿قَوْلٌ فَصْلٌ ۞ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾(الطارق:١٣)، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۞ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾(الحاقة:٤١-٤٢)، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾(التكوير:١٩) على أنه قول جبريل عليه السلام من جهة النطق به، كما أن القرآن نفسه يرشد في آية أثارت انتباهي على أنه "القول"، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(القصص:٥١).

هذا هو "القول" من جهة، فما هو القول؟ يمكن أن نتبين أنه هو القول من جهات: أنه أصل القول، وحق القول، وكل القول.

فمن جهةِ أنه أصل القول؛ فلأن كلمات الله تمت منذ البدء: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾(الأنعام:١١٥)، ولأن أيَّ قول جاء بعد قول الله تعالى للإنسانية، أيْ لابن آدم المشار إليه في لفظ "الهدى": ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾(البقرة:٣٨)، هذا هو الهدى، هو أصل القول في الأرض، وما من نقطة في الأرض إلا وصلها قول من هذا القول: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٤).

فالقول في نقط من الأرض، هو من الأثارة من العلم، تلك الأثارة التي تبقَّت عبر الزمن من القول الذي نزل. فأصلُ "قول"، أي "أصل القول الذي يستحق أن يسمى القول"، وبهذا التعريف بـ"ال" هو من هذا القول، أي ما فيه من حق ومن صواب ومن جمال مما به تأهّل أن يكون قولاً بليغًا.

ومن جهةِ أنه هو حق القولَ؛ لأن من القول ما ليس من حق القول، والقرآن جَمَعَ القول كله منذ بدأ نزول هذا القول حتى انتهى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة:٤٨). فما سبق من القول هو بعضٌ من كلٍّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾(آل عمران:٢٣). أما القرآن فهو الكتاب: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾(البقرة:١-٢)، وقد هيمن على ما تقدم وصدَّق ما تقدَّم من الكتاب. فـ"حق القول" في الأرض -الآن- مجموع في القرآن، ولا يوجد كتاب ولا مصدر فيه الحقُّ المحضُ الخالصُ إلا القرآن.

> **القرآن خزّانٌ ضخم للكليات وللأساسيات وللتجارب العظمى في التاريخ، فالقصص القرآني جملةً، هي خزانة لكليات التجارب في التفاعل بين القرآن بمعنى القول أي كلام الله، وبين الكون عبر قناة الإنسان وواسطته.**

ومن جهةِ أنه هو "كلّ القول"؛ أنه بمثابة أمّ الكتاب، وأمّ القول، كما قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨)، بمعنى أن الكليات والأساسيات التي توجه القول في هذه الدنيا مطلقًا توجد في هذا القول، وإنما تحتاج إلى أن تسري في العروق وتحتاج إلى أن يتضلع منها لتتمكن من الذات، فيصبح القرآن بعد أن تفاعل مع الإنسان كأنه نبراس طبيعي له، بعد أن تمكَّن منه القرآن وتمكَّن هو من القرآن، إذ ذاك لا يبقى نقاش في كيفية التلقي ولا في كيفية التنزيل؛ لأن الاتحاد بالقرآن وحلول القرآن في العبد، صار إلى الحد الذي فيه كما يقال "صار العبد قرآنًا يمشي".

إن المستوى الرفيع من العبد الذي صار قرآنًا يمشي، إنما تمثل في رسول الله ﷺ، وهو الذي أشارت إليه عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلُقه فقالت: "كان خلقه القرآن". وبقي هذا الخلُق في أصحاب رسول الله ﷺ وإخوانه، وقد ذهب الأصحاب وبقي الإخوان، حيث جاء في الحديث المشهور: "إخواني الذين لم يأتوا بعدُ" (رواه مسلم). هؤلاء الإخوان -إخوان الرسول ﷺ- هم أيضًا في درجة الأصحاب، من حيث تشبُّعهم بالقرآن، وتمثّلهم للقرآن، وحياتهم بالقرآن، وهذا ما قصدتُه بـ"كلّ القول".

اللفظ البليغ

أما "البليغ"، فالمعنى من هذه البلاغة غير المعنى الذي يأتيكم للذهن عن كلمة البلاغة، فالجذر اللغوي للكلمة: "يَبلُغ ويُبلِغ ويُبلّغ وهو بالغ في النفس بليغٌ". بهذا التمكن التام الذي سبَّبه وجود شروط وخصائص في الكلام، تجعله يُحْدِث ذلك الأثر الذي يشبه السحر، وشتان بين المعنى في مادة "بلغ" -لا في الجذر والأصل- التي لا تهتم بالسبب الذي يجعلها كذلك ولا بالواسطة، ولكن تهتم بالأثر في النهاية، كما أن الحديث بهذا الأثر وبهذه النهاية، يستلزم ما قبل ذلك استلزامًا.

وحينما نقول عن القرآن إنه "القول" وإنه "البليغ"، فيمكن

أيضًا أن نتحدث عن هذه البلاغة في القرآن من جهات ثلاث: أنه الأجمل، والأكمل، والأفعل.

فمـن حيـث أنـه الأجمـل؛ لأنه حتـى الآن لم يقـدَّر للغة العربيـة أن تتركـب في نـصٍّ لغويٍّ يحمل من أسـرار الجمال التـي تجبر المتلقـي على أن تحدث فيـه آثـارًا بعينها إلا في القرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(ق:٣٧)، أي الذي لا حجاب له على القلب، فكلام الله ينفذ إليه دون حواجز وكأنه مباشرة يتم النطق بالقلب.

والثانيـة أنـه الأكمـل؛ أي أن بلاغتـه -بهـذا المعنى الذي نتحدث عنه- لا علاقة لها بجزئيات بعينها وإن كان كلّ مركَّب فـي الأصـل مجموعـة من الجزئيـات، ولكن قد يتعـذر علينا أن نتبيـن كلَّ الجزئيـات، فالخصائص إنمـا تكون للمركب لا للجزئي؛ ففي الكيمياء نجد أن الماء لا علاقة له بالأوكسجين والهيدروجيـن -علـى سـبيل المثـال- وإن كانـا هما الأصل، ولكـن الذي له خصائص الماء إنمـا هو الذي يتركب من كل ذلك. فالمضمون والشكل وكل المكوّنات -كيفما كان نوعها فـي هـذا القول- تصـل إلى حـد الكمال البلاغـي من خلال علاقات التركيب.

وبهـذا الكمـال البلاغـي تأتـي الخاصيـة الثالثـة؛ أي أنـه الأفعل، بمعنى الذي يحدث في النفوس فعلاً لا يفعله سواه. فنحـن نعلـم أن لهـذا أصـلاً واضحًا هـو أنَّ ابـن آدم مركَّب مـن طين والـروح: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَـرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِـنْ رُوحِي﴾(ص:٧١-٧٢)، وهذا النفخ ليس خاصًّا بـآدم عليه السلام، فـإن كل وليدٍ بعد أن تمرَّ الأشـهر التي يدخل فيها الجنيـن أربعيـن يومًـا يكون نطفـة، ثم يكون علقـة، ثم يكون مضغة، ثم يرسَـل إليـه الملك لينفخ فيه الروح... ذلك السـر الذي عندما يغادر قسـم الطين (الجسـد)، يبقى الإنسـان كما هـو، ولكـن كل شـيء فيـه معطَّل؛ الأعيـن حاضـرة والآذان حاضـرة واليـدان والرجلان... والقرآن هو قوت ذلك السـر، فـلا يمكن للقسـم الروحي في الإنسـان أن يتغـذى بغير هذا الغـذاء، والحاجة إلى هذا الغـذاء أكثر من الحاجة إلى الغذاء العـادي، أي غـذاء الطين. نفهم هذا -ببسـاطة- مـن إجبارية الصلـوات الخمس فـي اليوم، لأن الصلاة فـي الأصل صلة، وعمـود هـذه الصلـة الوحي. فهـذه الإجبارية تعنـي أنَّ جوع الأرواح أخطر من جوع الأشـباح بكثير، وأن العبد إذا لم يغذِّ روحـه خمس مرات، فإنهـا تدخل بجدارة في عالم الأموات.

والقـرآن يعبـر عن الـذي لا اتصال له بهذا المعنـى بـ"الميت" مباشرة: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّـاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾(الأنعام:١٢٢)، وجـاء في الحديث الصحيح: "مثـل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت" (رواه البخاري).

إذن، لمـاذا يغـذي القـرآن الأرواح؟ لأنه هـو في حد ذاته روح، يقـول الله جل جلاله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحًا مِـنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَـدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢).

فلا غذاء للروح إلا بالروح، وحين يُستعذَب كلام وتعجَب بـه الروح الطيبـة إنما لِما فيه من هذه الروح، فيكون للحديث شـيء مـن الأثـر يشـبه آثـار القـرآن، لأن الرسـول ﷺ يقول: "أوتيـت القـرآن ومثله معـه" (رواه أبـو داود)، فهـو وحي لكنه لا يتلى. وفي كلام الراسخين في العلم الربانيين مَن أثَر من هذا المعنى الشـيء الكثير، وتأدية هذا المعنى هي بسـبب حضور الوحـي وتأثيـر الوحي في أصـل ذلك الـكلام. إذن، فإن هذا القول البليغ هو النموذج للأدب الأسـمى من حيث وقعه من هذه الزاوية الأدبية.

علاقة الأدب بالقرآن

واضـح بعدما تقدم من أن الأدب "قـول بليغ" وأن القرآن هو "القول البليغ"، أن العلاقات التي تنبني على هذا كثيرة نذكر منها:

١-علاقــة الأصل بالفرع: وذلك أن أيَّ قول بليغ -أيْ أدب- هـو فـي إطار ما نتحدث به، يرتفع معناه ويسـمو على قدر ما فيـه من هـذه القولية البليغـة، أي على قدر ما فيـه من الأدبية التـي تتضمن الجانب الشـكلي والجانـب المضموني في هذا الإطـار. الأدبيـة بهذا المعنـى داخل هذا الإطـار الذي يجعل القـرآن أدبًا أسـمى؛ لأنه لن يصير القـول إلا بما فيه من حق، ولذلـك فإن ما ليس بحقٍّ، يخرج عن دائرة الأدب. وفي إطار علاقـة الأصـل بالفرع، أطـرحُ نصًّا بعينه كما ذكر سـيد قطب حينما تحدث عن الشاعر من أنه: "الذي يستطيع غور جوانب بعينهـا، وكلما تطابق ذلك الشـاعر مـع الفطرة وتجاوب معها وعبَّـر عنها صار شـاعرًا كبيـرًا". ﴿فَأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْـرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(الروم:٣٠)، فالخلق فُطر على كيفيـةٍ هـو متَّجه فيهـا إلى الحـق والصواب دائمًـا... هذا هو الأصـل كما في الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانـه أو ينصّرانـه أو يمجّسـانه" (رواه البخـاري)، ولم يقل "أو

يسلمانه" وتلك هي الفطرة، وفي الحديث القدسي: "خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين فأضلتهم" (رواه أحمد). فالأصل في الخلق والكون هو الفطرة، وهي مرآة الحق والصواب: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾(الأحقاف:٣)، هذا هو الأصل في أمر الخليقة، ثم جاء الإفساد: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾(الأعراف:٥٦)، أي بعد إذ سُوّيت وقُدّرت فيها أقواتُها وضبطت ضبطًا كاملاً. هذه هي العلاقة الطبيعية؛ علاقة الأصل بالفرع.

> إن الامتلاء والتضلع من القرآن، وإن الشبع والتشبع بالقرآن إلى الحد الذي لا يبقى فيه انفصام بين العبد وربه، إلى الحد الذي يحاول أن يجعل من فعل ما أو فكرة ما قرآنيةً، هو الذي يؤسس تأسيسًا صحيحًا لإنتاج أدب إسلامي أو لإنتاج "الأدب الحقيقي".

الأصل إذن، هو هذا "القول البليغ" القُرآن، والفرع هو كل "قول بليغ"، وإنما تكون درجة قوليته بليغة على حسب قربه من "القول البليغ"، أي من الأصل.

٢-علاقة الرؤية بالممارسة: لكي يستطيع المسلم إنتاج قول بليغ، فإنه يحتاج إلى أن يتمكن من الرؤية القرآنية في كيفية سير الأمور في هذا الكون، لأن القرآن يصف واقع الأشياء وسنن الخلق؛ كيف هي وكيف تتطور وإلى أين تصير... كل ذلك مضمّن في القرآن. فإذا تمكَّن المسلم من الرؤية العامة للقرآن الكريم، فداخِل إطارها يبني ممارسته، أي يكتب أو ينتج لونًا من التفاعل بين ما استوعبه من الرؤية القرآنية -بالتفاعل بينها- وبين ما حوله من الأكوان، ثم يخرج النتيجة إلى الناس قولاً بليغًا على صورة ما. ولذلك أقول إن الامتلاء والتضلع من القرآن، وإن الشبع والتشبع بالقرآن إلى الحد الذي لا يبقى فيه انفصام بين هذا العبد وربه؛ الحد الذي يحاول أن يجعل مِن فعل ما أو فكرة ما قرآنية، هو الذي يؤسس تأسيسًا صحيحًا لإنتاج أدب إسلامي أو ما يسمّى بـ"الأدب الإسلامي"، أو لإنتاج الأدب الحقيقي.

٣-علاقة الذاكرة بالذكر: ثَمَّ علاقة أخرى ترجع إلى الأصل الكبير ويمكن أن نسميها بـ"علاقة الذاكرة والذكر". فالقرآن خزَّانٌ ضخم للكليات وللأساسيات وللتجارب العظمى في التاريخ، فالقصص القرآني جملةً -سواء كان قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين أو كان قصص الطغاة والظالمين وغير ذلك- هي خزَّانة لكليات التجارب في التفاعل بين القرآن بمعنى القول أيْ كلام الله، وبين الكون عبر قناة الإنسان وواسطته.

إذن، فإن الكليات أقوالٌ، سواء كانت في الصورة القصصية أو الفعلية أو في الصورة القاعدية (القواعدية) أو في الصورة المقاصدية، كل ذلك مضمَّن في هذا الكتاب، ومن ثَمَّ صار بمثابة ذاكرة ضخمة جمعت الكليات والأساسيات منذ بدء الكون حتى الآن مما ينفع الناس. هذه الذاكرة الضخمة تحتاج إلى ذكر لها، ولكنه ذِكْرٌ بغير المعنى الذي سميت الذكر بعد، يعني إلى رجوع إليها لاستلهام الأدوات والوسائل واللوازم العامة لإنتاج قول بليغ. هذه الذاكرة الضخمة جدًّا موجودة لننتج قولاً بليغًا، أي لنذكر الله. فنحن -اليوم- نحتاج إلى هذه الذاكرة لتحصيل الذكر.

الخاتمة

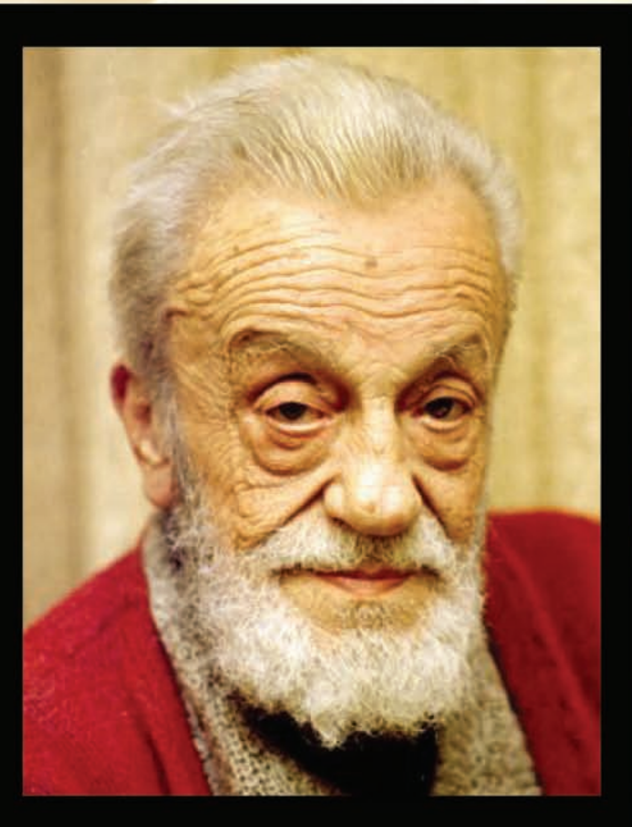
إذا أردنا أن نتجاوز اللحظة الحالية بالتجارب في نقط كثيرة من الأرض -وهي تجارب الخير- وإذا أردنا فعلاً ما يسميه البعض "الشهود الحضاري" كي نعود من جديد إلى التاريخ روادًا وقادةً... لا سبيل إلى ذلك من غير أن نمثل الخصوصية التي هي في حقيقتها داخل الإطار الذي نسميه العددي وهي العالمية، لأنها هي التي تلتقط ما في الفطرة من خصائص لتخرجها وتمثلها فيها، وابن آدم كيفما كان نوعه في الأفضلية ميسَّر لما خلق له وهو العبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦)، وما زُوّدنا به من التجهيزات الضرورية، إنما لنؤدي هذه الوظيفة؛ فلكي ننتج قولاً بليغًا يتم به في هذا المجال -أي المجال الأدبي- الشهود الحضاري، نحتاج إلى التضلع من القرآن أو استدراج القرآن كما في الأثر: "مَن حفِظ القرآن فكأنما استدرج النبوة بين جنبيه". ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

د. أحمد المراغي*



تجليات السيرة النبوية في شعر نجيب فاضل



يعد الشاعر نجيب فاضل الملقب بـ"سلطان الشعراء" الأتراك، من أهم الشعراء الذين جاءوا بعد تأسيس الجمهورية التركية الحديثة. أصدر نجيب فاضل الكثير من الدواوين الشعرية والروايات والمؤلفات التاريخية المشهورة في الأدب التركي الحديث، كما طرح من خلال شعره، العديد من القضايا المهمة التي كانت تؤرق المجتمع التركي بعامة، والإنسان التركي بصفة خاصة، فانجرف إلى عالم السياسة وانتقد بشدة السياسات التي كانت تؤرق هذا المجتمع الذي كان قد انتقل من مرحلة إلى أخرى ومن حالة إلى حالة، وهذا ما نلاحظه في جل شعره.

وقد تعرض نجيب فاضل للسجن والاعتقال أكثر من مرة، بسبب الدفاع عن حريته وحرية المعتقد لدى الإنسان التركي الذي رفض العلمانية في ذلك الوقت. وجابَه "فاضل" الكثير من الآلام والمواجع التي جعلته بطلاً تركيًا يحب بلاده حبًا غير محدود، إذ سخّر نصوصه الشعرية دفاعًا عن هذا الحب الذي صمد طويلًا أمام متاعب الحياة.

التكوينات الأولى

ولد الشاعر نجيب فاضل في عام (١٩٠٤م)، ورُبِيَ تربية مترفة في قصر جده "حلمي أفندي" رئيس محكمة الجنايات والاستئناف في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. فقد عاش طفولته وصباه متقلبًا في أحضان الثراء والنعيم، محاطًا بالرعاية والحنان. كان أبوه فاضل، عصبيًّا متقلب المزاج، حاد الطباع إلى حد بعيد حتى سمّاه أهله "فاضل المجنون"، وسارعوا بتزويجه -وهو ابن ستة عشر عامًا- بفتاة صغيرة في سن الرابعة عشرة، بغرض تهدئة طباعة والحد من عصبيته.

ولما بلغ نجيب فاضل الخامسة من عمره، بدأ جده الحنون عليه، يعلمه القراءة والكتابة ويحفظه القرآن الكريم. وكانت مخايل الذكاء والنجابة واضحة على الصغير نجيب فاضل؛ فما كاد يتم الحادية عشرة حتى قرأ بعض أعمال "فرجيل" و"غادة

الكامليـا" و"نجدت البائس"، وفي سـن السـابعة أدخلـه جـده مدرسـة فرنسـية لكنه نفر منها، فألحقه بمدرسة حكومية فنفر منها أيضًا، فألحقه بمدرسـة أخرى حصل فيها تعليمه الابتدائي.

وعندمـا كان يـدرس "فاضـل" فـي المدرسـة البحريـة، أهـدى لـه أسـتاذه "إبراهيم عشـقي" هدية نفيسـة شـكلت أساسًـا قويًّا في تكوينـه فيما بعد. كانت الهدية عبـارة عن كتابيـن الأول بعنوان "ثمـرات الفـؤاد" لـ"صـاري عبـد الله أفنـدي"، والثاني "ديوان نقشـي"، وهما كتابـان مـن كتـب التصوف الإسـلامي الـذي ارتـوت منه روح نجيب فاضل بعـد تحوله إلى التدين. وفي تلك المرحلة تأتّى له الاطلاع على الأدب التركي قديمه وحديثـه، وحتى وقت تخرجه مـن الجامعة بدت ثقافة نجيب فاضل في معظمها ثقافة دينية، ثم مزجها في مرحلة الدراسـة الجامعية ببعض رواد الفكر والفلسفة في الأدب الغربي. فكان لـه مزيـج متنافر من الثقافة الدينية التقليدية التي تشـكل حجر الأسـاس في حياة الأتراك منذ دخولهم الإسـلام، ومن الثقافة الغربيـة العلمانيـة التي حسـمت الصراع لصالحهـا في تركيا فـي بدايـة القرن العشـرين، ليجدها الفتى في سـنوات تكوينه ووعيه، هي الثقافة الرائجة في كل مؤسسات الدولة.

وقـد حـدث التحول الرئيسـي في حياة نجيـب فاضل في عام (١٩٣٤م) عندما التقى بـ"السـيد عبد الحكيم الأرواسـي" وهو من شـيوخ الطريقة النقشـبندية. وقد تجلى ذلك في قول نجيـب فاضـل نفسـه عن هـذه المرحلة: "مـا إن دخلتُ على شيخي ومولاي السيد عبد الحكيم الأرواسي، أحسست شيئًا يهزني ويهز أعماقي بقوة، وعندما سـمعته مليًّا، تغيرت حياتي كلها. لقد مسـح الشـيخ عن قلبي كل الأدران والحجُب التي غطت عليه".

ومن ثم فقد فتن سـلطان الشـعراء الأتـراك نجيب فاضل بالمتصوفـة وخصـص لهم كتابًا بعنوان "شـهداء الإسـلام في العصر الحديث" وهم أقطاب المتصوفة في ذلك الوقت، الذين ضحوا بأنفسهم من أجل النور الإلهي، فراح يخلدهم في هذا الكتاب؛ أمثال الشـيخ بديع الزمان "سعيد النورسي"، والشيخ العارف بالله "عبد الحكيم الأرواسـي"، والشـيخ "أسـعد أفنـدي" وغيرهـم.

من يبحر في شعر نجيب فاضل سيكتشـف بسهولة كيف فتن بالسيرة العطـرة للرسول ﷺ وبجوانبهـا المضيئـة، فتجلت في قصائـده علاقـة العاشـق بالمعشوق أو المريد بالشيخ في منحى صوفي وفلسفي عميق.

وتميـزت كتابـات نجيـب فاضـل، بالتنـوع والاختلاف والجمـع بين عبق التراث العربي -شـعره ونثره- وحداثة الواقـع المعاصر، رغبة في تغيير الواقع ودفاعًـا عـن حرية الشـعب التركي من أجل معتقداته وعاداته وتقاليده. ورحل نجيب فاضل عام (١٩٨٣م) إلى الرفيق الأعلـى، رحل جسـده، ولكـن لم ولن ترحـل عباراتـه الرصينـة التـي يرددهـا الإنسـان المعاصـر البسـيط فـي تركيا، بل مـن المدهـش أنني رأيت البسـطاء يعلقـون صورة نجيب فاضل في المحـال التجارية والمقاهي والفنادق والجامعات التركية تعبيرًا عن حبهم العميق له. ولم يكـن الاحتفاء بـه وحده، إنمـا احتفى الأتراك أيضًا بالشـاعر "محمـد عاكـف أَرْصُـوْيْ" الذي عـاش في القاهـرة أكثر من ثلاث عشـرة سـنة، والذي كتب النشـيد الوطني الـذي يردده الأتراك كبارًا وصغارًا إلى اليوم.

السيرة النبوية الشعرية

تعد السـيرة الشعرية، تقنية من التقنيات التي احتفى بها الشعر التركي المعاصر. وهذه الظاهرة لم تقتصر على الشعر التركي فحسـب، بل سـبقه الشـعر العربي القديم. وأظن أن الشـعراء الأتراك تأثروا بالشـعر العربي تأثـرًا واضحًا في هذا الجانب. ويمكن القول إن السـيرة الشـعرية هي مجموعة من الأحداث المتعلقة إما بشخصية من الشخصيات المرتبطة بذات الشاعر -ولها أثرها الواضح عليه- وإما بذات الشـاعر وما ارتبط بها مـن أحداث وتغيرات وتقلبـات، بحيث يكون لهذه الأحداث تأثيـر فـي الحياة التي تعيشـها الـذات الشـاعرة أو تركت أثرًا واسعًا في نفسها.

كان الشـاعر التركي نجيب فاضل من الشعراء الذين فتنوا بالسيرة الشعرية، وقد تجلى ذلك من خلال ديوانه المهم الذي جاء بعنوان: ديوان السلام "لوحات من السيرة المقدسة". فقد صـدرت الطبعة الأولى من ديوان السـلام في عام (١٩٧٢م)، وصـدرت الطبعة الثانية عـام (١٩٨٢م)، حيث يتكون الديوان من ثلاث وسـتين قصيدة شـعرية، تحدث في كل قصيدة عن

شخصية الرسول محمد ﷺ، معتمدًا على حياته وسيرته العطرة من خلال منحى عرفاني يربط العاشق بالمعشوق أو الشيخ بالمريد، ونلاحظ ذلك في مجمل قصائد هذا الديوان. ومن هذه القصائد التي ارتبطت بملامح السيرة الشريفة للنبي ﷺ قصيدة بعنوان "الزمان"، يقول الشاعر نجيب فاضل فيها:

حتى ذلك اليوم كان الزمان
بكرة ملفوفة
ثم فُكّتْ خيوطها،
النجوم في السماء سكرى
والأرض أغطش ليلها
غريبة ظلالها
الزمان بندول كله أسرار
متناقض الأطوار
حلزون لا أول له ولا آخر.
سيف هو أو مقص
قطع اليوم في لحظة
كل شيء في ذلك اليوم له أول وآخر
في ذلك اليوم الأصنام تحطمت
والبحيرات غارت
وفي كل شيء ظهرت علامات
كل الموجودات هلكت
والقفار على الماء تحسرت
والكائناتُ كلها انتظرت
شيء ما سيكون ما كنهه؟
الأرض ترسل الدعاء إشارة للسماء
بيت ما في مكة
أجل إنه الغاية
غاية الغايات.

يبدو المشهد الشعري السابق، من المشاهد الوجودية التي تحتفي بفكرة الوجود الإنساني داخل الحياة الأرضية، ومن ثم يطرح النص الشعري مجموعة من الأفكار الفلسفية العميقة والأسئلة التي تبوح بها الذات الشاعرة للملكوت المطلق الذي لا إجابة بشرية فيه، كما تسيطر الروح البائسة والذات المتناقضة على سطح النص الشعري، وكأننا أمام حوادث هُلامية ستحدث في هذا العالم الأرضي البائس. وتلكم الغاية والهدف من هذا التوحد في البشارة الأخيرة، وهي أن الشاعر نجيب فاضل، يستدعي لحظة ميلاد النبي محمد ﷺ في مكة، وقبل هذه اللحظة كان الزمان مشوشًا والحياة قاسية والمكان ظلامًا وظلمًا وقهرًا وعبودية، وعندما أتى النبي إلى الدنيا، تغير حال الناس وحدثت المعجزات الكبرى، وأخذت الأرض ترسل الدعاء إلى السماء شكرًا لله واعترافًا بفضله وقوته وعظمته.

وتعتمد القراءة الثقافية في شعر نجيب فاضل على تلك الرؤية التي نسجها عن تراثنا العربي، وكيف كانت الحياة قبل بعثة النبي محمد ﷺ، تلك النظرة التي اختلطت بها مشاعر الذات، وحاولت الاحتماء بما هو أكبر وأعظم من الذات الضعيفة التي يسطر عليها الحزن والقهر.

وفي قصيدة بعنوان "الميلاد"، يستطرد الشاعر التركي نجيب فاضل لحظة الميلاد التي جاء فيها النبي محمد ﷺ إلى البشرية وكأنه نور نزل من السماء إلى الأرض، فيقول:

آمنة، أرملة عبد الله المحزونة
بلغت لحظة المخاض المنتظرة
تقول: لم أشعر لحظة بألم
وسمعت صوتًا يتكلم:
ما أسعدك يا آمنة!
فأنت حبلى بنور الوجود
وبُسِطَ من خلفي جناح أبيض
وسقيت شرابًا كأنه من جنة الخلد
ومسح عن قلبي الخوف والأواء
كأنه صبّ السماء في إناء،
وسلط فوق رأسي ذكاء
فعمّ الوجود الضياء
وهطل مطر النور
فالبعيد قريب
ولاحت لي بلاد الشرق المهيب
سواري إيران ومن الروم قبابها
ها أنذا بيدي أتحسسها
تحوطني حور حسان
ما رأت مثلهن عينان
تحملن أحْواضًا وأباريق عجيبة
أنفاسهن رقيقة رطيبة
وصوت صداه يذيب

الجبل والحجر
يقول: ودعوا العدم أيها البشر
جاء سبب الوجود رحمة للعالمين
ولد محمد آخر المرسلين
ولد يتيمي، صحيحة هي الأنباء
فرفعت سبابتها نحو السماء.

يعتمد النص الشعري السابق، على استدعاء شخصية السيدة آمنة بنت وهب والدة النبي محمد ﷺ، كما يستدعي النص نفسه حدثًا مهمًّا وهو الإشارة بمجيء سيد المرسلين. وهذا لا يخلو من دلالةٍ مفادها، أن الشاعر نجيب فاضل التحم التحامًا قويًّا بالثقافة العربية الرصينة وبتراثها العريق الذي حفظه الأسلاف والأجداد، وعلى الرغم من اختلاف اللسان التركي، إلا أن الشاعر حاول الكتابة عن نصّ عربي ليقدم صورة مهمة عن ثقافة العرب وحضارتهم الواسعة بعد انتشار الإسلام. ومن الملاحظ أيضًا أن النص اشتمل على الكثير من الإشارات النصية أو التناصية المتعددة داخله، وذلك من خلال التناص القرآني. فهو يعتمد على روح الثقافة العربية -وهو القرآن الكريم- ونلاحظ ذلك في بعض الإشارات القرآنية التناصية مثل؛ "تحملن أحواض وأباريق عجيبة، أنفاسهن رقيقة رطيبة، جاء سبب الوجود، رحمة للعالمين، ولد محمد آخر المرسلين". إن جل هذه الإشارات، يجعل النص الشعري أكثر انفتاحًا على الآخر موظفًا للتراث الإنساني الواسع.

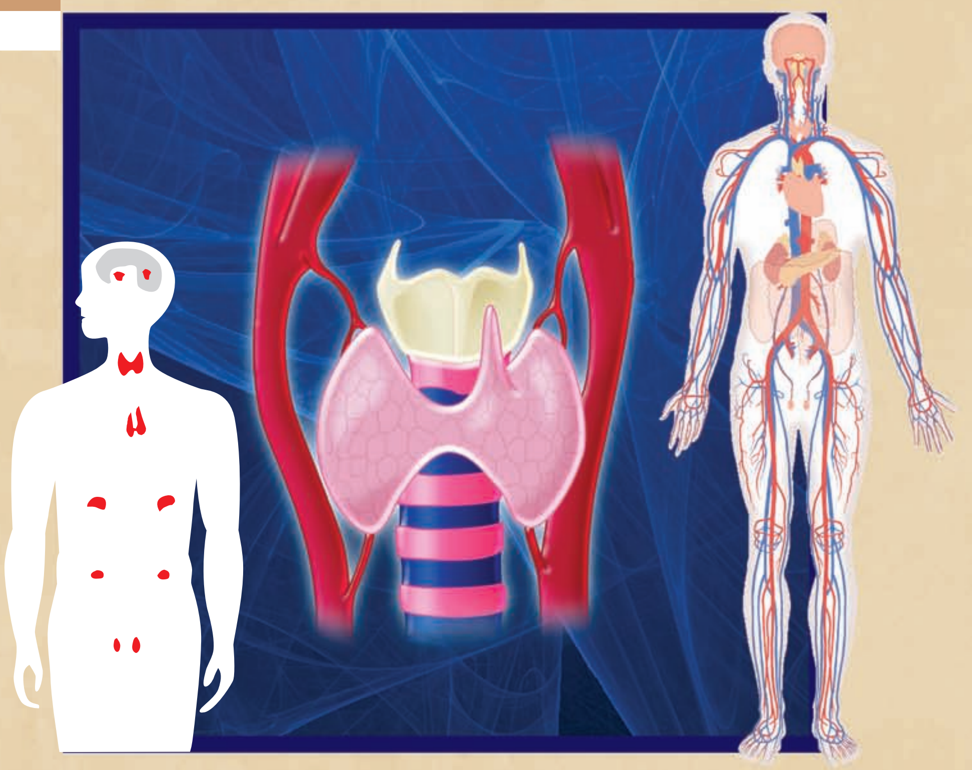
ويقول الشاعر نجيب فاضل في قصيدة بعنوان "النور":

هو نور مطلق منذ القدم
كان له وجود والدنيا عدم
ضرع آدم إلى الله لما غوى
أن يغفر له بحق نور المصطفى
في جبين آدم نور مبين
انتقل من بعده لأحد المرسلين
وتجلت آيته بلا نقاب
لا يحجبها حرف أو ظرف أو حجاب
ثم انتقل النور الإلهي وسرى
لست أدري ممن؟
لمن بين الورى؟
من إبراهيم وإسماعيل
وغيرهما ممن اجتبى
وظل ذلك النور كاللواء
الذي ينتظره منذ الأزل
ذاك النور سر يفوق الضياء
أظهر الموجودات في جلاء
بدونه الناس صمّ وعميان
وخراب ويباب كل البلدان
النبي الخاتم النبي الخاتم
جاء الآخر وهو الأقدم
خرج منه النور وإليه عاد
فأشرقت به الوهاد والنجاد.

إن الحديث عن النور السماوي الذي انبثق من السماء إلى الأرض من الأحاديث التي خلبت العقل البشري، وجعلت العقل الجمعي في حيرة من أمره وظل يطرح أسئلة لا إجابة لها في العالم الأرضي بيننا، ومن ثم فقد جاء الحديث عن النور الإلهي في هذا النص مرتبطًا بالحديث عن النور البشري المتجسد في شخصية النبي محمد ﷺ، فهو نور من عند الله، فيه صفات البشرية، كما حدثنا القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا عن خَلْقِ النبي محمد وخُلُقِه، تعتمد الذات الشاعرة على طرح قضية النور وماهية هذا النور من خلال إثارة الأسئلة الغامضة المسكوت عنها في تراثنا العربي بصفة عامة. ويعد النور رمزًا مهمًّا لدى المتصوفة، ومنهم نجيب فاضل الذي اتحد واستمسك بهذا النور، لأنه بمثابة الملاذ الحقيقي لحرية الذات من براثن الجهل والضياع، ودفاعًا عن حقوق الإنسانية بصفة عامة. ولهذا فإن الشاعر نجيب فاضل يعدّ من أهم الشعراء المتصوفة أيضًا في الأدب التركي الحديث، ولا تخلو دراسة عن الشعر التركي من نصوصه. ومن ثم فقد كان لزامًا علينا -نحن العرب- أن نتطلع إلى آفاق أخرى في ظل حوار الحضارات والثقافات المتعددة التي تؤدي فيما بعد إلى حوار الشعوب من خلال الشعر والفن، ومن ثم أدعو شباب الباحثين من العالم العربي والإسلامي للاهتمام بالأدبين التركي والفارسي لما لهما من أثر كبير في منطقة الشرق الأوسط. ■

(*) ناقد وشاعر مصري.

أ.د. عرفان يلماز*



جهاز الغدد الداخلية يتكلم

عزيزي عبد الله، بدأنا نقترب من نهاية حديث أعضائك عن نفسها وعن أنظمتها معك! فقد تكلمتْ معك هذه الأعضاء عن دقائق خلقها وبدائع صنعتها التي ظهرت فيها بصمات الخالق ﷻ. ومن ثم زودتْك بالمعلومات مبينة أن الطبيعة والأسباب لا يمكنها أن تخلق شيئًا. كما أن الأعضاء التي تعمل في جسمك تحتاج إلى نظام يقوم مقام القائد، والقسم الأول من هذا النظام هو "الدماغ والجهاز العصبي"، والثاني هو "أنا" الذي أسمى بـ"جهاز الغدد الصماء" أو "جهاز الهرمون الداخلي".

إن المبدأ الأساسي الذي يجب أن يلتزم به جسمك حتى يتمكن من تأمين حياتك في صحة وعافية، هو الحفاظ على الوسط الداخلي في توازن حركي (ديناميكي) ثابت من خلال التأقلم مع الشروط البيئية المتغيرة. ولقد كلِّفت غدد صغيرة في حجمها، كبيرة في آثارها تسمى بـ"الغُدد الصمّاء" بضمان سير هذه النشاطات دون أي خلل.

الوظيفة الأساسية للغدد الصمّاء

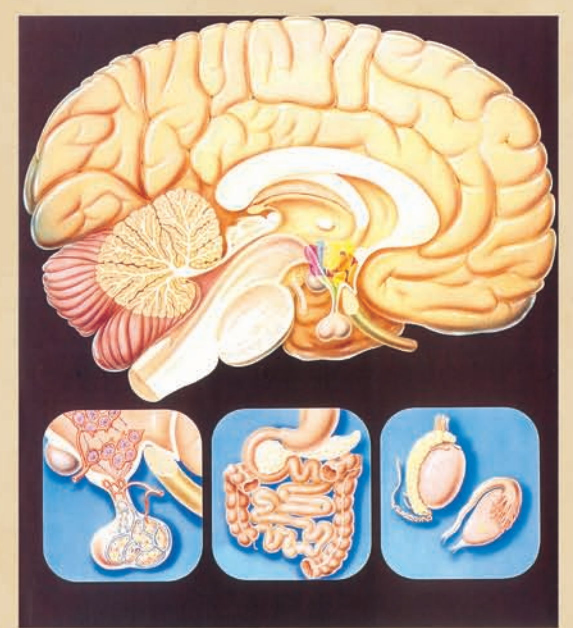
الوظائف الأساسية للغُدد الصمّاء تتجلى في تأمين النمو والتطور، وترتيب سلسلة التكاثر الضرورية لاستمرار الأجيال في شكل مناسب.

تأتي "الغدة النخامية" على رأس هذه الغدد التي تشكل جهاز الإفراز الداخلي، وتكون بمثابة قائد لها، وتستقر داخل الدماغ. ثم تليها الغدد الأخرى؛ الغدة الدرقية، والغدة جار الدرقية (الدريقات)، والغدد فوق الكلية (الكظرية) وهي غدد الأدرينال، والغدة الصنوبرية، والبنكرياس، والغدة الصعترية، والخُصَيَّتان، والمَبِيضان. هذه الغدد الصغيرة التي تعمل ضمن برنامج رائع متقن ومتزن مهمة للغاية، وها هي تتحدث عن نفسها بالتتالي. فالغدة النخامية تصعد خشبة المسرح...

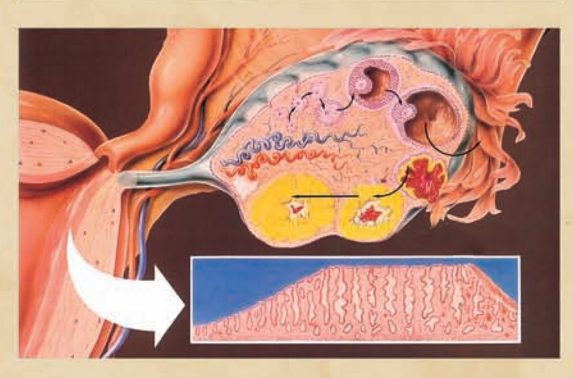
١- الغدة النخامية

اسمي "الغدة النخامية"، كُلِّفتُ بقيادة الغدد كلها، ولذلك أختبئ في مكان محكم أمين في القسم السفلي للدماغ. جسمي في حجم حبة الحمّص، ووزني بضع جرامات، عضو صغير جدًّا، لكن مهاراتي كبيرة للغاية. فصّي الأمامي يفرز معظم الهرمونات التي منحها خالقنا دورَ المفتاح للغدد الصمّاء الأخرى وخاصيةَ قيادة نشاطها الإفرازي. فهرمون الثيروتروبين مصمَّم بالمقدار الذي يكفي للتأثير على الغدة الدرقية وتحفيزها من أجل الإفراز، والاضطراب في إفراز الثيروتروبين يتسبب في اختلال عمل الغدة الدرقية التي ستحدثك بعد قليل عن نفسها. فإن ازداد إفرازه كان مرض

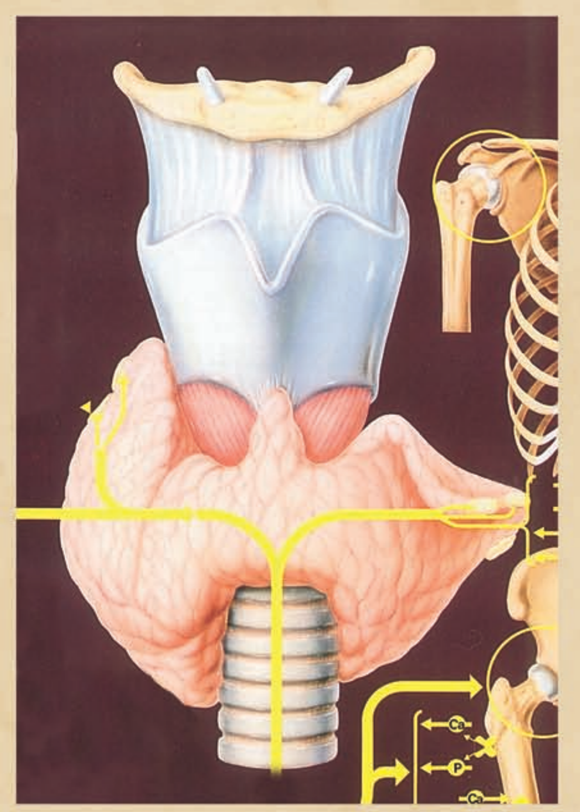
فـرط نشـاط الغـدة الدرقيـة، وإن قـلَّ يـؤدي إلـى تعطيل نشـاطها. وهرمون "الأدينوكورتيكوتروبين" الحاثّ لقشرة الكظر، مخلوقٌ من أجل ضبط نشـاط قشـرة الغدة الكظرية (غدة الأدرينال). والهرمون المنبّـه لتكوين النطف التناسـلية يقوم بعمل مهم في سـير الأنشـطة الفيزيولوجية الضرورية من أجل استمرار السلالة البشرية، من خلال ترتيب إفراز الهرمون الأنثوي الأسـتروجين مـن المبيضين، والتأثير على نضوج البويضات عند النساء والحيوانات المنوية عند الرجال. وهرمون البناء (اللوتين) يعمل مع الأستروجين على تنبيه الإفرازات الجنسية الأخرى البروجسترون والتستوستيرون.



أنت الآن تبلغ (١٨٠ سم) في حين كنتَ عند الولادة (٥٠ سم). والزيـادة فـي الطول صاحَبتهـا زيادة في اليديـن والقدمين، وتضخم الـرأس والجسم بما يتناسـب معهـا. والهرمـون الحاث علـى بناء البروتينات (السـوماتوتروبين) من الهرمونات التي أُفرزُها أنا، تعمل على تحكم نموك بهذا الشكل الذي يناسب عمرك، فلو تسرب الخلل بسـبب مـا إلى عملي، ونتج عن ذلك نقص فـي إفراز هذا الهرمون، لكنتَ الآن قزمًا أو بقيتْ بعض أعضائك صغيرة لا تناسب جسمك في الحجم والقياس. ولو ازداد إفرازه لكنتَ عملاقًا بشكل مَرَضيّ.



وهرمـون الحليب (البرولاكتين) الذي يؤمّن تطور الغدد المنتجة للحليب عند النساء الحوامل، والهرمون المنبه (الميلانوسيت) الذي ينبّـه الخلايـا الصبغية (البيغمنت) لإنتاج صبغـة الميلانين التي تلوّن الجلد ينتجهما أيضًا فصّي الأمامي، لكنهما لا يتعلقان بالغدد الصماء الأخرى. يعمل الميلانوسـيت على بناء الجزيئات البروتينية الدهنية (الليبوبروتيـن) في الوقت الذي يعمل فيه على بناء مواد (المورفين) الطبيعي من "الأنسيفالين" و"الأندورفين"، وهاتان المادتان يمكن أن ندعوهما بالمخدر الطبيعي، وبفضلهما تستطيع أن تتحمل الآلام الكبيرة.



إن الفسـاد الأخلاقي والانحلال الجنسي الذي يعيش فيه عالمنا اليوم، يبدأ بالتأثير في الدماغ منذ الطفولة؛ بالتربية والتنشئة الخاطئة وصحبة الأصدقاء الفاسـدين، لتشـكل في النهاية منعكسات شرطيةً تحدث خللاً في توازني الهرموني، والفسادُ في الهرمونات الجنسية يؤدي إلى فساد السلوك، وفسادُ السلوك يفسد التوازن الروحي ويدفع إلى الآفات والقبائح النفسية. ولذلك ينبغي الاهتمام الدقيق والعناية الكبيرة في أن يكتسب الطفل في سنّ مبكرةٍ هويةً تناسب جنسه، والعملُ على تكوين دماغه بالمنعكسـات الشـرطية التي تناسبه ذكرًا أو أنثى.

وهناك أيضًا هرمون الأوكسيتون الذي يحرك العضلات الملساء، وعلـى الأخص ينبه عضلات الرحم للانقباض أثناء الولادة وقنوات الحليـب لتأميـن جريان الحليـب. والهرمون المضـاد لإدرار البول، يعمـل على تقليل كمية البول من خـلال تضييق الأوعية الدموية في الكليتيـن وارتفاع ضغـط الدم فيها لامتصاص المـاء منهما. وبذلك

يتم الحدُّ من خسارة الماء في الجفاف والحر. ونقصان هذا الهرمون يظهر على شكل مرض السكري، وينشأ الخلل في استقلاب الماء.

لديّ الكثير من الروائع الأخرى التي يمكنني أن أحدثك عنها يا عبد الله، غير أن مقامي كقائد للغدد الصماء الأخرى، يمنعني من الاعتداء على حقوق الآخرين، ويدفعني أن أترك مكاني للغدة الدرقية.

٢- الغدة الدرقية

أنا "الغدة الدرقية" يا عبد الله.. ومكاني في الرقبة تحت حنجرتك، أتكون من قطعتين على جانبي قصبتك التنفسية تتصلان ببعضهما بنسيج رقيق. وفي فراغاتها تُنتج خلايا جسمي ثلاثًا من الهرمونات الأساسية، وفق البرنامج الذي وضعني فيه خالقنا العظيم. هرمونان منها مُيَوَّدان (أي، فيهما مادة اليود) هما الثايروكسين وثلاثي يود الثايرونين والهرمون الثالث الكالسيتونين. هرموناتي لها تأثيرات هامة جدًا. فتنظيم استهلاك الأوكسجين في خلاياك والذي له علاقة بأداء الجسم بشكل عام، حمّله ربنا هرمونات قطعة لحم صغيرة مثلي، إضافة إلى ضبط مستوى الكولسترول في الدورة الدموية. وهذه الهرمونات الميوَّدة شرط ضروري لنمو الأطفال. فبنقصاني يتأخر النمو ويظهر بعض ما لا يرغب فيه من الحالات كالتقزم والتخلف في الذكاء. وعندما يزيد إنتاجي من الهرمونات عن حده، تجحظ عيناك إلى الخارج وهو ما يسمونه بمرض "التضخم الجحوظي".

عن طريق هرموناتي الميوَّدة وهرمون ثايروتروبين المنبه الذي تفرزه رئيستي "الغدة النخامية" أراقبها وتراقبني؛ فإن أصابني فتور وتباطأت في الإفراز، فإن الغدةُ النخامية تنبهني، وإن أصابني نشاط وازداد إفرازي، توقفت الغدة النخامية عن التنبيه منتظرة هدوئي. إنه نظام مذهل يأخذ بالألباب، أليس كذلك؟!

٣- الغدة جار الدرقية

اسمي الغدة "جار الدرقية". وكما هو واضح من اسمي فأنا الجار الذي يقع خلف الدرقية مباشرةً في أربع قطع صغيرة. ولي وظائف كثيرة مجهولة إضافةً إلى أعمالي الأساسية. فيتجلى عملي الأساسي في الضبط الدقيق لكميات الكالسيوم بين الدم والهيكل العظمي، إضافة إلى كوني صاحبة القرار في استقلاب الفوسفات والمغنسيوم. فأنا مكلفة بإنتاج هرمون جار الدرقية من أجل القيام بهذه الأعمال، وطبيعي أني لا أعرف بنيته الكيماوية، ولكني مبرمج على إنتاجه بلا خلل أو كلل. ويمكن معرفة ما إذا كنتُ أقوم بعملي بشكل سليم أم لا، من خلال قياس مستوى الفوسفات في بولك ومستوى الكالسيوم في دمك. فنقصان الكالسيوم في دمك يؤدي إلى التشنجات العضلية والرَّعْشات والخرف المصاحب للتشنجات الكزازية في بعض الأحيان بسبب التنبه الزائد في الأعصاب. والعملُ السليم للقلب والعضلات يتوقف بشكل كبير على الكالسيوم. ويقال بأن لي دورًا في ضبط المغنسيوم. فمن يدري ما الذي تخفيه لك الأيام لتعرفه عني! ولكن اسمح لي الآن أن أكتفي بهذا القدر يا عبد الله.

٤- الغدتان الكظريتان

نحن الغدتان الكظريتان، نحتل مكانَيْنا كأختين فوق كلٍّ من الكليتين. كل واحدة منا على شكل مثلث طوله (٥ سم)، وعرضه (٢,٥ سم)، وسمكه (٠,٥ سم)، ووزنه (٤,٥ غ) تقريبًا. وضعنا خالقنا هكذا على شكل طبقتين. فقسمي الداخلي ينتج هرمونين هامين؛ "الأدرنالين" و"النورأدرنالين". فهرمون الأدرنالين يعمل على تسريع تحول الغليكوجين في الكبد إلى سكر غليكوز الدم. وهكذا يزداد السكر في الدم لتأمين حاجتك من الطاقة، ويزيد من سرعة وقوة نبضات القلب، ويضيق الأوعية الدموية متسببًا بارتفاع ضغط الدم. كما أعمل على فتح الشعب الرئوية لتأمين كمية أكبر من الأوكسجين. وهذه الأعمال التي ذكرتها، أقوم بها بزيادة هذا الهرمون (أي الأدرنالين) دون أن تدري يا عبد الله، لتستطيع حماية نفسك عند تعرضك للانفعالات، أو دخولك في صراعٍ ما، أو خوفك من تهديد.

يفرز القسم القشري مني عددًا من الهرمونات الستيروئيدية أهمها "الألدوستيرون" الذي يعمل على تنظيم مستويات الماء والملح في الجسم (وعلى الأخص استقلاب أملاح الصوديوم والبوتاسيوم). ويعتبر "الكورتيزول" مسؤولاً عن تفكيك البروتينات وتأمين احتياجك من الجليكوز عندما تجوع، كما يعتبر مضادًا للالتهابات ومضادًا للتحسس. وأُنتج هرموناتِ الذكورةِ إلى جانب الخصيتين... فما هي فائدة الأنتروجينات؟ تعتبر هذه الهرمونات مسؤولة عن التحكم في صفات الذكورة، كالصوت الذكوري واللحية والشاربين والشعر في الجسم بشكل عام. أنتج منه القليل؛ فالخصيتان هما المسؤولتان الأصليتان عن إنتاج هذا الهرمون. وخشونة الصوت ونمو الشعر لدى العجائز من النساء رغم عدم وجود الخصيتين لديهن، يعود إلى الكميات الضئيلة التي أفرزها من

هذا الهرمون "الأنتروجين".

٥- الغدة الصنوبرية

اسمي "الغدة الصنوبرية"؛ غدةٌ صغيرة جدًّا تنشأ من سقفٍ في الدماغ، أنتج هرمون الميلاتونين. وهذا الهرمون يتحكم في تكاثف الخلايا الخاصة التي تعطي لجلدك لونه، وتدعى "الخلايا الصبغية" (ميلانين). وبذلك تستطيع هذه الخلايا أن تتحسس بشدة الضوء فيأخذُ جلدك لونه تبعًا لاختلاف طول النهار من موسم إلى آخر. كما يُعتقد بأني أمثِل الساعة البيولوجية في دماغك، وأتحكم بدورية نومك ويقظتك، ونشاط أعضائك المختلفة في ساعات معينة من اليوم.

٦- الخِصْية:

اسمي "الخِصْية".. خلقني ربي كوسيلة لاستمرار السلالة البشرية، فأودعني في كيسين على شكل بيضتين متقابلتين؛ في كل كيس خصية تبلغ (٢٥ غ)، كل واحدة منا محفوظةٌ بغلاف من النسيج الضامّ. وهذا الغلاف ينقسم إلى (٢٠٠-٤٠٠) فصٍّ، وكل فصٍّ مَجْدول على شكل أسطوانة. يتم في هذه الفصوص إنتاج الحيوانات المنوية، وخلايا التكاثر التي تحمل جزءًا من برنامجك الجيني. فعندما تبلغ سنّ البلوغ، نبدأ بإنتاج الحيوانات المنوية بتنبيهٍ من غدتك النخامية، وبمشاركة التوستوستيرون من الهرمونات الذكورية (الأنتروجينات). فبينما يكون التوستوستيرون ضروريًا لظهورك كرجلٍ في شخصيةٍ ذكوريةٍ خاصةٍ ومظهرٍ ذكوريٍّ مختلفٍ عن النساء، تنشأ الحيوانات المنوية من الانقسام الانشطاري لخلايا خاصة.

ومن الانقسام المتتالي وحركات الكروموزومات في خلايا هذه الحيوانات المنوية المختلفة عن بعضها، تشبه بشخصياتها المختلفةِ الكثيرةِ العائدةِ إليك، التي أخذتها من أبيك وأمك أثناء الانقسام الانشطاري. فإذا فكرت في اختلاط آلاف الصفات الشخصية المتقابلة، علمت الحجم الواسع للطاقة الكامنة من الخيارات التي تملكها. ففي عضوٍ مثلي تُنتَج في أعماقه هذه المادة التي تندفع إلى الخارج على شكل ماءٍ كريهِ الرائحةِ فيوجِب الغُسْل. قد أودع الله ﷻ بحكمته الكبرى، وظيفةَ استمرارِ النوعِ البشري وقدَّمها هديةً إليك.

٧- المَبِيض

اسمي "المَبِيض" ووظيفتي متعلقة بالسيدات، كما أحمل نصف وظيفة استمرار السلالة الإنسانية. وللسيدة مبيضان معلقان عن اليمين وعن اليسار داخل بطنها عند الخاصرة. طول الواحد منا (٤ سم)، وعرضه (٢ سم)، وسمكه (١,٥ سم)، ووزنه (٤-٨ غ). ونحن نحمل ما بين (١٥٠) ألف إلى (٥٠٠) ألف بويضة غير ناضجة قبل ولادتها. ثم في مرحلة طفولتها تَفْسُد الكُيَيْسات التي تحوي هذه البويضاتِ باستمرار، حتى لا يبقى منها إلى مرحلة بلوغها سوى (٣٥) ألف بويضة في المتوسط، ينضج منها (٣٠٠-٥٠٠) بويضة في فترة صلاحيتها للحمل والولادة (١٣-٥٠) عامًا. ويمكن للسيدة أن تعلم بلوغَها بسبب هرمونَي الإستروجين والبروجسترون اللتين أفرزهما. فبينما يؤمن الاستروجين صفات النضج الأنثوي يعمل البروجسترون على تعشيش البويضة الملقحة بالحيوان المنوي والذي سيتحول إلى جنين في جدار الرحم. والبويضة التي أنتجها كل شهر (٢٨) يومًا في المتوسط، إن لم تتحد مع حيوان منوي، تَفْسُد ثم تطرح إلى الخارج مع بقايا الأنسجة التي تشكلت بسببها في جدار الرحم ثم تنضج بويضة أخرى لتنتظر في الرحم الحيوان المنوي المكتوب في قدرها.

٨- البنكرياس والغدة الصعترية

ينبغي علي أن أحدثك عن عضوين آخرين، أحدهما البنكرياس وقد حدثك عن نفسه من قبل. فالبنكرياس -كما تذكر- غدة مختلطة، فهي باعتبارها غدة مفتوحة -ليست صماء- تفرز أنزيماتِ الهضم، وباعتبارها غدة مغلقة (صماء) تفرز هرمونات الأنسولين والغلوكوجين المتعلقة باستقلاب الكربوهيدرات (النشويات). وقد خصصنا له لقاءً خاصًّا، لأنه عضو كثير التعقيد وقد أخبرك عن نفسه هناك بشكل مفصل.

والغدة الصعترية عضو آخر من أجهزة الغدد الصماء لا يثير انتباه الكثيرين، وتساهم في نظام الإفراز الداخلي، علاوة على كونها تدخل في أنظمة الجهاز المناعي. والغدة الصعترية على خلاف الأعضاء الأخرى في نظامي المناعة والإفراز الداخلي، تكون في حجمها الأعظمي في المرحلة الجنينية وعند الولادة، ثم تتضاءل بمرور الزمن وتتناقص وظيفتها، فتبدأ عند البلوغ بالذبول والتلاشي حتى نهاية العمر. والسبب في حجمه الكبير في مرحلة الطفولة، هو الحاجة إليها لإنتاج الأضداد الخاصة للجراثيم الجديدة التي يتم التعرف عليها كل يوم.

في هذه الأعضاء الصغيرة جدًّا، تظهر أسرار وحكم عظيمة. وأعتقد أنه من غير الممكن أن تكون هذه الإدارة المتقنة لأنشطة الجسم كلها من خلال هذا النظام الهرموني الرائع، قد وُجدت بنفسها أو وُجدت صدفة نتيجة تطور عشوائي. ولن يكون مثل هذا المنطق مقبولاً عند أحد، أليس كذلك؟ ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

نور الدين صواش*



مجلة "حراء" تعقد مؤتمرها الثاني في إسطنبول

للقرآن والحقائق العلمية

في يومي السبت والأحد الموافقين للرابع عشر والخامس عشر من شهر مايو/أيار لعام ٢٠١١، تلألأت سماء إسطنبول بنور القرآن الكريم حين احتضنت أرضها ورثة الأنبياء علماء الأمة الإسلامية؛ من تركيا والسعودية، موريتانيا والمغرب، سورية ومصر، الجزائر وماليزيا، تونس والصومال، كينيا والسنغال، أوغندا والكونغو، جنوب إفريقيا وإثيوبيا، ومن سائر الأصقاع التي تتحدث بلسان عربي مبين أو تعشق لغة القرآن الكريم...

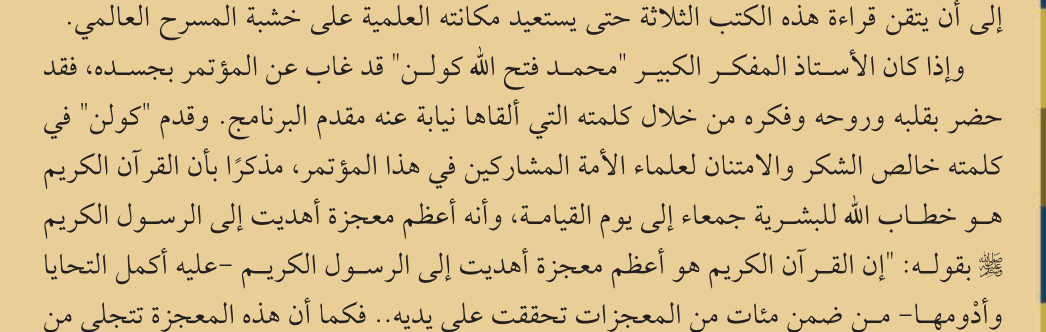
فقد التقى في هذين اليومين على أرض إسطنبول كوكبة عظيمة من العلماء للمشاركة في "المؤتمر الدولي الثاني للقرآن والحقائق العلمية" تلبية لدعوة من مجلة "حراء" التي نظمت المؤتمر بالتعاون مع شقيقتيها التركيتين مجلة "سيزنتي" (Sızıntı) ومجلة "يني أميت" (Yeni Ümit).

شارك في جلسات المؤتمر التي امتدت ليومين ما يزيد عن ألفي مشارك من الأكاديميين، والأساتذة الجامعيين، والمشايخ، ورواد الفكر، ومرشدي الأمة، والشباب.. ولقي المؤتمر تغطية واسعة من وسائل الإعلام المختلفة، لا سيما محطات التلفزة التركية التي قامت بالبث المباشر لفعالياته.

افتتح المؤتمر جلساته العلمية بتلاوة آيات من الذكر الحكيم أعقبها كلمة من الدكتور "أرجون جابان" رئيس تحرير مجلة "يني أميت" التركية، رحب فيها بجموع الحاضرين وشكرهم على قبول دعوته ودعوة إخوانه، لافتًا إلى ضرورة الدخول في مسلك القرآن الكريم الذي هو كتاب هداية وكتاب حقائق يقينية يجب على المسلم أن يبحث عنها ويستشفها. كما شدد على أن الإنسانية في أمس الحاجة إلى القرآن، و"القرآن في أمس الحاجة إلى من يمثله بحق".

ثم حيّا الأستاذ نوزاد صواش المشرف العام لمجلة حراء، في مداخلته الحضور وعلماء الأمة الذين شرّفوا بالحضور إلى هذا المؤتمر من داخل الوطن التركي وخارجه قبل أن تتوالى الكلمات الافتتاحية لكل من الأستاذ الدكتور حمزة أكتان رئيس اللجنة العليا للشؤون الدينية في تركيا، والأستاذ الدكتور عدنان يوكسل رئيس جامعة "بزم عالم"، والأستاذ الدكتور شريف علي تك آلان رئيس جامعة الفاتح في تركيا، وأخيرًا الأستاذ الدكتور محمد كورماز رئيس إدارة الشؤون الدينية في تركيا، والذي أشار في كلمته إلى التآلف والترابط الشديد بين القرآن والإنسان والكون، داعيًا الإنسان المسلم





إلى أن يتقن قراءة هذه الكتب الثلاثة حتى يستعيد مكانته العلمية على خشبة المسرح العالمي.

وإذا كان الأستاذ المفكر الكبير "محمد فتح الله كولن" قد غاب عن المؤتمر بجسده، فقد حضر بقلبه وروحه وفكره من خلال كلمته التي ألقاها نيابة عنه مقدم البرنامج. وقدم "كولن" في كلمته خالص الشكر والامتنان لعلماء الأمة المشاركين في هذا المؤتمر، مذكرًا بأن القرآن الكريم هو خطاب الله للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة، وأنه أعظم معجزة أهديت إلى الرسول الكريم ﷺ بقوله: "إن القرآن الكريم هو أعظم معجزة أهديت إلى الرسول الكريم -عليه أكمل التحايا وأدْومها- من ضمن مئات من المعجزات تحققت على يديه.. فكما أن هذه المعجزة تتجلى من خلال روعة بيانه وإعجاز نظمه ودقة تعبيراته وجمال أسلوبه، فإنها تتجلى أيضًا من خلال مبادئه الاجتماعية، وأصوله الحقوقية، وقواعده التربوية، وتأويلاته حول الإنسان والوجود والكائنات، وتناوله جُلّ أسس العلوم إما إشارةً أو رمزًا أو إيماءً أحيانًا وإما صراحةً أحيانًا أخرى".

وأكد كولن في موضع آخر من كلمته أن القرآن هو بيانٌ وإيضاحٌ للأوامر التكوينية، وهو مصدرٌ -متين لا يتغير- للمبادئ والقواعد التشريعية قائلاً: "إنه كتابٌ محكَم يحتوي على أوثق مقاييس قراءة الوجود والكون والإنسان قراءةً صحيحةً، وليس هناك أيّ مشكلة معضلة لا يقْدر على حلها. ومن هنا فإنه يصدح بأعلى صوته معلنًا بأنه منزل من علم ذاتٍ إلهية مطلعة ومهيمنة على جميع الأمور والأشياء بأسبابها ونتائجها..".

وفي محاضرته الافتتاحية التي جاءت بعنوان "ضوابط البحث في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة"، أكد من جهته الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح الأمين العام للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بالمملكة العربية السعودية، على ضرورة حث العقل البشري على المقارنة بين الآية المنظورة في الكون والحياة والإنسان، والآية المسطورة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وذلك لترسيخ القناعة في الوجدان الإنساني بالبرهان العلمي الواضح على أن مَن خلق الأكوان هو مَن أوحى إلى سيدنا محمد ﷺ بالقرآن، مضيفًا أن القرآن الكريم هو كتاب الهداية الذي يتضمن حقائق يجب أن يبحث عنها المسلمون ليخدموا دينهم جميعًا دون استثناء.

وشهدت جلسات المؤتمر استعراض العديد من البحوث والدراسات العلمية من قبل متخصصين في علوم مختلفة، تمحورت حول ضوابط البحث عن الإعجاز العلمي في القرآن



أ.د. محمد كورماز



أ.د. حسان شمسي باشا



أ.د. عبد المجيد بلعابد



أ.د. حامد عطية محمد



أ.د. محمد علي البار

والسنة، ومن بينها بحث "خلق الإنسان بين الطب والقرآن" الذي قدمه الأستاذ الدكتور محمد علي البار من السعودية، وبحث آخر عن "الإعجاز العلمي في زيت الزيتون" قدمه الأستاذ الدكتور حسان شمسي باشا من سوريا.

وفي بحث بعنوان "حقائق الخلق في القرآن"، أوضح الأستاذ الدكتور حسني حمدان الدسوقي" من مصر، أنه سعى إلى توضيح الرؤى العلمية الثاقبة لمفسري القرآن الكريم والتي يجدر بعلماء الكون أن يستفيدوا منها في استشراف آفاق العلم، مؤكدًا أن قمة الرسوخ في علوم الكون تستلزم استخدام نفس المصطلح القرآني...

وفي اليوم التالي من المؤتمر، قدم الأستاذ الدكتور قمر الدين بن محمد يوسف من ماليزيا بحثه المعنون بـ"آيات الشفاء في العسل"، فيما عرض الأستاذ الدكتور حامد عطية محمد من مصر، في بحثه المعنون بـ"آيات الرحمن في تكوين لبن الأنعام"، لمراحل تكوين اللبن في بطون الأنعام خالصًا سائغًا للشاربين مستشهدًا في ذلك بالآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾(النحل:٦٦)، كما لفت الأنظار بحث الأستاذ الدكتور عبد المجيد بلعابد من المغرب والذي عنونه بـ"من الإنبات إلى النبات آية للثبات"... وقدم علماء متخصصون من مناطق مختلفة في تركيا بحوثًا علمية أخرى ذات أهمية بالغة نعتذر من عدم ذكرها كلها في هذا المقام.

وفي الجلسة الختامية، قام الأساتذة المشاركون بتقييم أعمال المؤتمر، ومن ذلك ما ذكره الأستاذ الدكتور سعاد يلدريم من تركيا قائلا: "إن هذا المؤتمر قد اضطلع بمهمة قراءة كتاب الكائنات في ضوء القرآن".

أما فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد العزيز المصلح، فقد أوصى في كلمته العلماء الشرعيين واللغويين بوصيتين.. وبين وصيته الأولى قائلا: "إن القرآن هو كتاب الهداية وهو الطريق الواصل إلى الله، لكنه كذلك يحوي حقائق يجب أن نفتح بصيرتنا وأبصارنا وعقولنا، لكي نتأملها، ولكي نفاخر بها، ولكي نحرك الطاقات الكامنة في هذه الأمة لتبدع وتبتكر وتعود لها ريادتها في مجال العلوم والقيم والأخلاق ودلالة البشرية إلى سعادة الإنسان قبل سعادة الآخرة".

ثم عرض "المصلح" لوصيته الثانية فشدد على ضرورة فصم العقدة بين علماء الشريعة والعلماء التقنيين قائلاً: "إن القرآن قد أمرنا أن يلتقي عالم التفسير وعالم اللغة العربية وعالم أصول الفقه مع أستاذ الفيزياء، الكيمياء، وعلوم البحار، وعلوم الأرض، وعلوم الفلك... وإذا التقينا تآخينا وتعاونا وأظهرنا هذه الحقائق... آن الأوان لكي نعود إلى هذا التلاقي والتلاحم في هذا الجسم..".

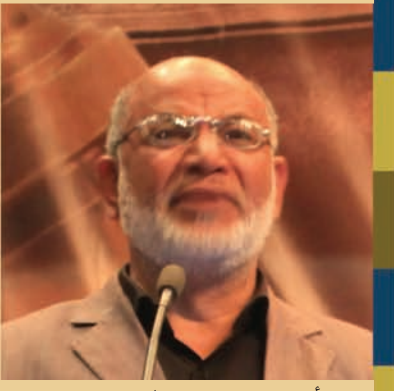
وإجمالاً، فقد أزاح لنا المؤتمر -الذي كانت دورته الأولى قد عقدت في صيف ٢٠١٠ تحت عنوان "القرآن والحقائق العلمية- مرة أخرى الستار عن الحقائق العلمية القرآنية، وجلى لنا بُعدًا آخر من الأبعاد المعجزة لهذا الكتاب العظيم، بالإضافة إلى تأكيده من خلال الأمثلة والنتائج الهامة التي كشف عنها العلماء المشاركون، على التوافق بين القرآن الكريم والحقائق العلمية، وهو التوافق الذي يثبت بحق أن القرآن الكريم هو مصدر ومنبع الحقائق العلمية، وأن التطورات العلمية التي تحدث في عصرنا هذا، ما هي إلا تأييد لكلام الله العزيز القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣). ■

(*) كاتب وباحث تركي.


أ.د. عبد الله بن عبد العزيز المصلح


أ.د. قمر الدين بن محمد يوسف


نوزاد صواش


أ.د. حسني حمدان الدسوقي


د. أرجون جابان



ممدوح يلدريم*

مكتبة السليمانية

خزينة تراث الأمة

تعد مكتبة السليمانية بإسطنبول، من أكثر المكتبات العالمية حفظًا للمخطوطات التي يبلغ عددها نحو ٦٧,٣٥٩ مخطوطة، إضافة إلى نحو ٧٤,٠٠٠ كتاب مطبوع من الطبعات القديمة والنادرة من شتى أنواع العلوم والمعارف الإنسانية. وهي جزء من كلية السليمانية (جامع السليمانية) التي أمر ببنائها السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر.

تبلغ مساحة المكتبة نحو خمسة آلاف متر مربع، ويتكون مبناها من قسمين متقابلين يفصل بينهما ممر يؤدي إلى جامع السليمانية، حيث يضم القسم الغربي من المكتبة، مستودعات المخطوطات والمطبوعات النادرة، كما يضم القسم الشرقي، الصالة الكبرى التي تحتوي على أقدم المخطوطات العربية والعثمانية والفارسية النادرة، والمحفوظة في خزائن زجاجية.

وأقدم مخطوطة في المكتبة هي مخطوطة جزء من القرآن الكريم المكتوب بالخط الكوفي على رق الغزال، والعائد إلى القرن الثالث الهجري. ولعل المصاحف الشريفة تأتي في مقدمة المخطوطات هذه. بالإضافة إلى وجود مصاحف كتبها مشاهير الخطاطين؛ مثل المصحفين الشريفين المكتوبين بخط الخطاط المشهور "ياقوت المستعصمي".

هذا وقد صدرت دفاتر فهرسة لمجموعات من المخطوطات، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ولكن فُقدت بعضها أثناء الحروب والكوارث الطبيعية التي حدثت في إسطنبول. وبالتالي أُضيفت مخطوطات أُخرى لم تكن موجودة في المكتبات أثناء عهد السلطان عبد الحميد. ثم إن هناك الفهرس الإليكتروني الذي شمل كل المخطوطات الموجودة في تركيا تقريبًا سواء المفهرس المطبوع منها على الورق أو على البطاقات غير المطبوعة. ■

(*) كاتب وباحث تركي.

إبراهيم يوجه داغ*



البرغوث

محطم الرقم القياسي

هل تعلم الارتفاع الذي يبلغه البرغوث عند القفز؟ وهل تعلم السرعة التي يبلغها بالقفزة الواحدة؟

يستطيع البرغوث القفز بارتفاع يزيد على طوله (٨٠-١٠٠) مرة، ويتقدم بالقفزة الواحدة مسافة (٣٠-٤٠ سم) بسرعةٍ تقارب سرعة الطلق الناري، ثم إنه يستطيع أن يواصل قفزاته دون توقف لمدة ٧٨ ساعة.

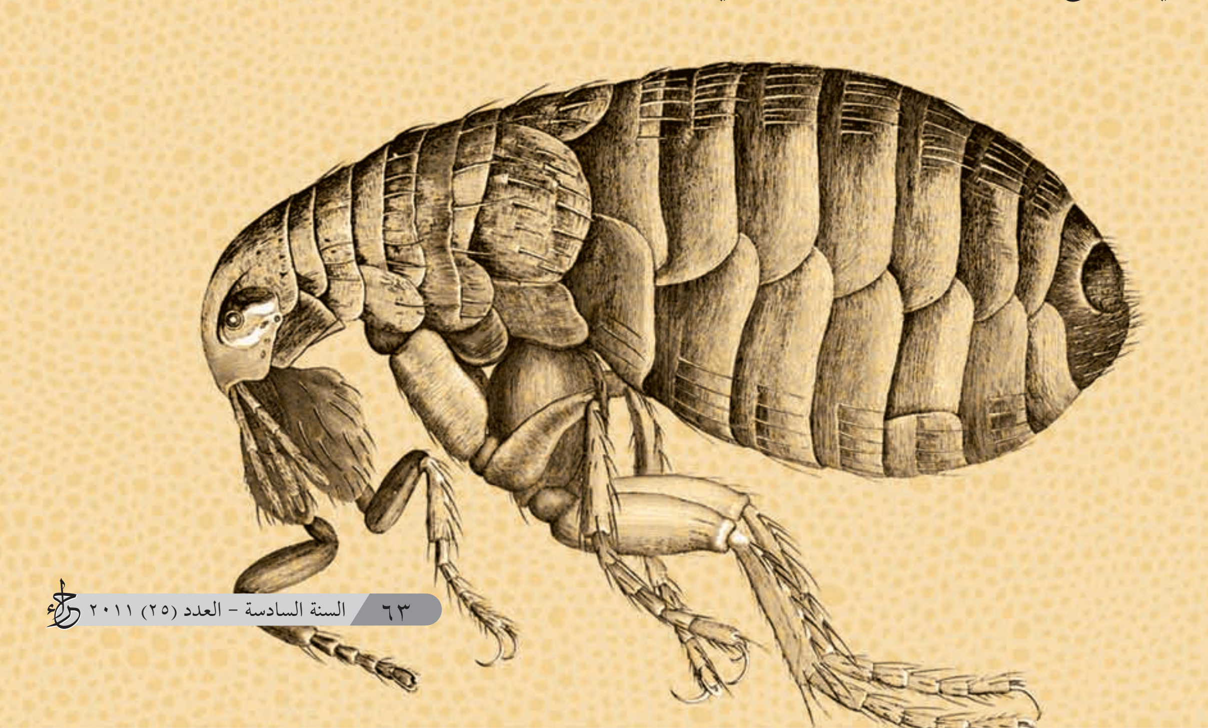
اكتشف العلماء أن الأداء المذهل الذي يقوم به البرغوث عند القفز، يكون بمساعدة نوع من النظام النابض الذي أضيف إلى سيقانه، والذي يعمل بفضل مادة "الريزيلين" التي بها تخزن الطاقة الميكانية، حيث تتميز هذه المادة بقدرتها على تحرير ٩٧٪ من الطاقة المختزنة بداخلها عند التمدد، وبالتالي توجد هذه المادة المرنة في وسائد دقيقة جدًّا في سيقان البرغوث الخلفية التي يستطيع من خلالها أن يقفز إلى الأعالي قفزات منقطعة النظير.

وعليه فإن الهيكل العظمي للبرغوث -الذي وُضع خارج جسمه- يتكون من طبقة صلبة تكسي كامل جسمه، كما تمتص هذه الطبقة الصدمات الناتجة عن القفز وتبطل تأثيرها!

لو كان الإنسان يملك ميكانيكية البرغوث في القفز، لتمكّن من عبور مضيق البوسفور بإسطنبول بقفزة واحدة دون غيرها، وبسرعة فائقة توازي سرعة الرصاص!

أوَما يعجب الإنسان عندما يرى هذه المشاهد الناطقة؟ أوَما يرى أن ما يجري في هذا الكون لا يمكن أن يكون صدفة؟ أوَما يبصر أن كل ما يجري في هذا الكون إنما هو عن طريق الإلهام الذي تتجلى به القدرة الإلهية في أدق مظاهرها؟ أوَما يرى؟! ■

(*) كاتب وباحث تركي.






مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: 20222631551+
الهاتف الجوال: 20100780831+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
مربع ٤٨ رقم ٣١ أركاويت – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 991 367 91 86

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار



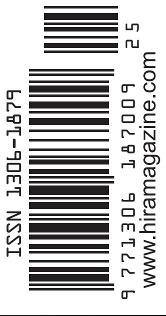
تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار



فراش النور

يا فَراش النور، يا هَوَّام، وحول النور حَوَّام،
يا محروق الجناحِ، يا شعلةً قد غدوتَ،
عن نار النور لا تكف، وإنْ طُعمةً للنار صرتَ،
تسقط ثم تنهض، وإلى النور تعود،
وبنفسك لناره تجود...

* * *


ISSN 1306-1879
9 771306 187009 25
www.hiramagazine.com